أدب مراسلات



يُعدّ منتصف القرن التاسع عشر مرحلةً فريدة من نوعها بالنسبة لروسيا الأدبية. وفي أية فترات أخرى وأية منطقة، لم يظهر مثل هذا العدد من الكُتّاب والشُعراء الموهوبين. وكزملاء بحسب المهنة، فقد كانوا يتواصلون في ما بينهم، ويعقدون الصداقات حيناً، أو يشتمون بعضاً ويتشاجرون في حين آخر، أو لربما يفترقون إلى الأبد. وفي هذه المجموعة الأدبية المُتنوعة، من المُمكن أن نُصادف إيفان تورغينيف وفيودور دوستويفسكي.

يستعرض هذا الكتاب مُراسلات جرت بين اثنين من عمالقة الأدب الروسي في القرن إيّاه، هما فيودور دوستويفسكي وإيفان تورغينيف، اللذين تركا بصمة كبيرة ليست في الأدب الروسي فحسب، بل في الأدب العالمي أيضاً. كما يضمّ الكتاب أيضاً قصة لقاء هذين الكاتبين الكبيرين في مدينة بادن الألمانية وكيف اختلفا وتخاصما ثمّ افترقا إلى الأبد.

الكتاب رحلة شيقة في عوالم الكاتبين وتفسير مشوّق لطبيعتهما البشرية وسلوكهما خارج الأدب وداخل الحياة. إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال الإحاطة الشاملة بتفاصيل كاتب ما من دون الإمعان الدقيق في كل ما كتب من سيرة ويوميات ورسائل تسلط اضواءً كاشفة على ما يتوارى ويضيع بين طيات الحبكة الأدبية.


ISBN 978-9-9226349-9-9
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين

مُراسلات
دُوستويفسكي وتورغينيف

مراسلات

دوستويفسكي وتورغينيف

ترجمها عن الروسية: محمد خميس

حرّرها وقدّم لها: إي. س. زيلبيرشتين، ن. ف. بيليشكوف

Correspondence

Dostoevsky and Turgenev

Translated by Mohammad khamis

الطبعة الأولى: فبراير - شباط، 2021 (1000 نسخة)



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 634 - 99 - 9

قصّة عِداء

مُراسلات دُوستُويفسكي وتُورغينيف

ترجمها عن الروسية

محمد خميس

حرّرها وقدّم لها

إي. س. زيلبيرشتين، ن. ف. بيليشكوف



www.daralrafidain.com

الفهرس

مِن المُترجم

يُعدّ منتصف القرن التاسع عشر مرحلةً فريدة من نوعها بالنسبة لروسيا الأدبية. وفي أية فترات أخرى وأية منطقة، لم يظهر مثل هذا العدد من الكُتّاب والشُعراء الموهوبين. وكزملاء بحسب المهنة، فقد كانوا يتواصلون في ما بينهم، ويعقدون الصداقات حيناً، أو يشتمون بعضاً ويتشاجرون في حين آخر، أو لربما يفترقون إلى الأبد. وفي هذه المجموعة الأدبية المُتنوعة، من المُمكن أن نُصادف إيفان تورغينيف وفيودور دوستويفسكي.

يستعرض هذا الكتاب مُراسلات جرت بين اثنين من عمالقة الأدب الروسي في القرن إيّاه، هما فيودور دوستويفسكي وإيفان تورغينيف، اللذين تركا بصمة كبيرة ليست في الأدب الروسي فحسب، بل في الأدب العالمي أيضاً. كما يضمّ الكتاب أيضاً قصة لقاء هذين الكاتبين الكبيرين في مدينة بادن الألمانية وكيف اختلفا وتخاصما ثمّ افترقا إلى الأبد.

لقد تعرف هذان الأديبان الكلاسيكيان إلى بعضهما في سانت بطرسبورغ، وذلك في العاشر من نوفمبر عام 1845. وكان دوستويفسكي قد أتم حينها 25 عاماً من عمره. وكان في بداية طريقٍ وعرٍ نحو الشهرة. وعلى الرغم من أن تورغينيف كان يكبره بثلاث سنوات فقط، لكنه كان يحتل مكانةً مرموقةً في أوساط النُخبة الأدبية الرفيعة. قرر دوستويفسكي أن يتكسّب من خلال العمل بالكتابة، وكان غالباً ما يعمدُ لتناول الغداء مكتفياً

برغيفٍ صغير من الخبز الأبيض، يُغمسه بقهوة الشعير. أما تورغينيف، الثري النبيل، فقد كان يقضي معظم وقته في جولات إلى الخارج. إلا أنّ هذين الشابين المُختلفين سرعان ما أصبحا صديقين.

كتب دوستويفسكي ذات مرة إلى شقيقه: منذ فترةٍ ليست ببعيدة، عاد الشاعر تورغينيف من باريس (لعلك تكون قد سمعت بذلك) ومنذ المرة الأولى أصبح مُرتبطاً بي بمثل هذه المودة والصداقة اللتين يفسرهما بيلينسكي بحقيقة أنّ تورغينيف قد وقع في حبي. ولكن، يا أخي، أي نوع من الرجال هو؟ أنا أيضاً كدت أن أقع في حبه. إنّه شاعرٌ، موهوب، أرستقراطيّ، وسيم، ثري، ذكيّ، متعلمٌ، يبلغ من العمر 25 ربيعاً، لا أعلم فيمَ رفضته الطبيعة؟ ثم إنّه ذو شخصية صريحة بشكلٍ لا ينضب، ورائعة، نشأت في مدرسة جيدة. اقرأ روايته في مجلة «مذكرات الوطن». فشخصية «أندريه كولوسوف» هي شخصيته هو بعينه، على الرغم من أنّه لم يُفكّر في تقديم نفسه فيها.

وحقيقة أنّ تورغينيف كان أرستقراطياً وثرياً، لم تحُل دون صداقتهما المبكرة مطلقاً. فقد تبع تورغينيف بحماسه حكم بيلينسكي: دوستويفسكي عبقري.

إلا أنّ هذه الصداقة قصيرة الأمد، والتي جاءت في عزّ نجاح دوستويفسكي الباهر في حلقة بيلينسكي، قد أعقبها فتور وشجار. وفي بداية عام 1864، تم التعبير عن موقف ساخر تجاه دوستويفسكي في قصيدة هجائية كتبها تورغينيف ونيكراسوف بعنوان «رسالة بيلينسكي إلى دوستويفسكي»، وكأنّها كُتِبَت باسم بيلينسكي نفسه:

«الفارس ذو الشخصية الكئيبة،

دوستويفسكي، يا عزيزي المُنتفخ،

على أبواب الأدب،

مُتوردٌ أنت كبثرةٍ جديدة».

إنّ هذا البغض النفسي والعاطفي لبعضهما البعض، فُرِضَ، بلا شك، على الاختلافات الفكرية، وخاصةً التي تفاقمت بعد سجن ونفي دوستويفسكي، عندما تحول الشجار الذي بدأ بينهما إلى قصة عِداء، ولكن في بادئ الأمر، كان التقارب بينهما قد بدأ من جديد في الأعوام 1860 ـ 1865، على الرغم من أنّه كان خارجياً بشكلٍ بحت. وكان تورغينيف قد نشر روايته «الأشباح» في مجلة «العصر»، وأعطى تقييماً عالياً لرواية «مذكرات من منزل الأموات»، أما دوستويفسكي فقد كان مُعجباً بروايتَي «عش النُبلاء» و«الآباء والبنون». وبحسب رأي تورغينيف، فأنّ دوستويفسكي، مثله مثل أي شخصٍ آخر، كان قد فهِم بازاروف.

لقد أدت العديد من اللقاءات الشخصية بين تورغينيف ودوستويفسكي إلى توتّر في علاقتهما ومُشادات كلامية. وإنّ الاختلاف في شخصيتيهما وسلوكيهما، وتناقض معتقدات كلّ منهما غير القابل للحسم والتوفيق؛ كل شيء قد أثار كراهية مُتبادلة بينهما. ولكن عند تقييم أحد الخصمين عن بعد، فأنّ كل واحد منهما يُدرك بصمت موهبة واستحقاق الآخر. وأنّ تعاونهما الهمّام الواجب، وتبادلهما الإبداعي كان يفوق الدناءة والسفالة الدنيوية، بل وحتى الصدامات الفكرية، سواء في شكل توافق أم اختلاف.

لن أسهب في الحديث أكثر عما جرى بين هذين العملاقين، بل سأترك

الفرصة للقارئ الكريم لكي يعرف بنفسه الخلاف والعِداء بينهما من خلال رسائلهما، وتحديداً قصة لقائهما في بادن. وأرجو أن يلقى هذا الكتاب، أيها القارئ الكريم، استحساناً وقبولاً لديك.

المترجم
محمد خميس

سيرة حياة ف. م. دوستويفسكي في سطور

* ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي في الثلاثين من أكتوبر عام 1821، في موسكو.
* كان والد دوستويفسكي، ميخائيل أندرييفيتش، طبيباً في مستشفى مارينسكي للفقراء. وهو نبيل بالوراثة منذ عام 1828.
* والدة دوستويفسكي، ماريا فيودوروفنا، كُنيتها قبل الزواج نيشييفا، تنحدر من عائلة تُجّار. كانت قد أنجبت سبعة أطفال، من بينهم الابن فيودور الذي كان ثاني ابنائها. توفيت عام 1837.
* في عام **1833** أُدخِل فيودور دوستويفسكي إلى مدرسة داخلية صغيرة باسم ن. ي. دراشوسوف. حيث كان شقيقه ميخائيل يدرس هناك أيضاً.
* في **1834 ـ 1837** غيّر دوستويفسكي مكان دراسته، وأصبحت مدرسة ل. ي. تشيرماك الداخلية الخاصة مكان دراسته. وقد قدّمت زيارته التي استمرت ثلاث سنوات لهذه المؤسسة مادّة للأعمال المستقبلية.
* في بداية عام **1837** تزامنت وفاة والدة دوستويفسكي تقريباً مع نبأ وفاة أ. س. بوشكين. وقد عانى دوستويفسكي من خسارتين في آنٍ واحد.
* في مايو من العام نفسه ذهب فيودور وميخائيل دوستويفسكي إلى سانت بطرسبورغ لمواصلة تعليمهما، والتحق الأخَوان بمدرسة ك. ف. كوستوماروف الداخلية الإعدادية.

* في 1838 ـ 1843 كانت دراسته في كلية الهندسة المدنية.
* كان الكاتب يذكر سنوات الدراسة بـ«سنوات السجن». ولكن، على الرغم من كل شيء، كان يجِد الوقت لتجاربه الأدبية الأولى. ومع مرور الزمن، تشكلت حلقة أدبية مُحيطة به.
* في السادس عشر من فبراير عام 1841 قام ميخائيل دوستويفسكي بإقامة أمسية وداع (رحل إلى ريفيل). وقرأ فيودور دوستويفسكي في هذا المساء لأولِ مرة جُهراً مقتطفات من أعمالهما على الملأ. وكانت هذه الأعمال هي دراما «بوريس غودونوف» و«ماريا ستيوارت».
* في عام 1844 في مراسلاته مع شقيقه، يذكر دوستويفسكي آخر أعماله الدرامية، وهو «اليهودي يانكل». ومن الواضح أن التجارب الأدبية الأولى لكاتب المستقبل العظيم كانت مُحاكاة.
* في ذلك الحين، توفي والد دوستويفسكي. فحصل فيودور وميخائيل على ميراث ضئيل، فقام الأقارب برعاية الصغار.
* في نهاية عام 1843 بعد تخرجه من الكلية، تم تجنيد فيودور دوستويفسكي كمهندس ميداني ملازم ثانٍ في فريق الهندسة في سانت بطرسبورغ. ولم تدُم خدمته طويلاً، فقد انتهى القرار النهائي بتكريسه نفسه للأدب، بالاستقالة في العام التالي.
* في يناير عام 1844 قام دوستويفسكي بترجمة «يفغينيا غراندي» لبلزاك. أصبحت الرواية أول عمل منشور للكاتب.
* في 1844 ـ 1845 عمل على الرواية الأولى «الفقراء»، الرواية، التي كانت مُتفرقة في البداية في نسخة مطبوعة صغيرة، استقبلها الجمهور في بطرسبورغ بإعجابٍ شديد..

* في عام 1845 كان دوستويفسكي كثيراً ما يتواصل مع بيلينسكي، ودخل في الحلقة الأدبية في سانت بطرسبرغ. وفي ديسمبر، في أمسية تقليدية في منزل الناقد، قرأ فصولاً من رواية «الشبيه».

* لم تدم علاقة الصداقة بين دوستويفسكي وبيلينسكي طويلاً. فقد شجب الناقد «التصنع» و«المُغالاة في التزويق» في قصة «السيد بروخارتشين»، وأعطى لاحقاً رأياً حاداً عن رواية «ربّة البيت». وعلى أثر بيلينسكي، أدار صديقا دوستويفسكي أيضاً في مجلة «المعاصر» (تورغينيف ونيكراسوف) ظهريهما له. فَمرّ دوستويفسكي، سريع التأثر بطبيعته، بأوقاتٍ عصيبة في هذه الفترة. وقد ظهرت لدى الكاتب لأول مرة أعراض الصرع.

* لقد زادَ الوضع المادي لفيودور ميخائيلوفيتش من تفاقم حالته. فصار فقيراً. وكان ينبغي عليه أن يعمل لمجلة «مذكرات الوطن» مقابل مبلغ زهيد، ويتلقى طلبات ليس لها سوى علاقة محدودة بالأدب، على سبيل المثال، تحرير مقالات خاصة بـ«المعجم الموسوعي المرجعي».

* في عام 1846 بعد أن ترك حلقة بيلينسكي، بدأ دوستويفسكي في زيارة رابطة الأخوين بيكيتوف الأدبية، التي كان يرأسها ف. مايكوف. وسرعان ما ظهرت للكاتب حلقة تواصل جديدة.

* في ربيع عام 1847 أصبح فيودور ميخائيلوفيتش مُساهماً دائماً في الاجتماعات الأسبوعية شبه الثورية «أيام الجمعة»، التي ينظمها ف. م. بوتاشيفيتش ـ بيتراشيفسكي. وكادت مساهمته في حلقة أنصار بيتراشيفسكي أن تُدمّر الكاتب.

* في الثالث والعشرين من أبريل عام 1849 اعتُقل فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي وسُجِن في قلعة بيتروبافلوفسكي. وقد كُتِبَت هُناك قصة «البطل الصغير». أثناء استجوابه، يتصرف الكاتب بصورةٍ لائقة للغاية، وقد برّأ أصدقاءه. وكانت النتيجة الحكم بالإعدام على خلفية «تعمّد الإطاحة بالقوانين الوطنية القائمة ونظام الدولة».
* في الثاني والعشرين من ديسمبر عام 1849 كان من الواجب وضع الحكم قيد التنفيذ. وفي اللحظة الأخيرة، عندما كان المحكومون يقفون على ساحة عرض سيمينوفسكي في انتظار الإعدام رمياً بالرصاص، جاء قرار الإمبراطور نيكولاي الأول. وتمّ استبدال عقوبة الإعدام بحق دوستويفسكي بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات، وتجريده من «جميع حقوق الميراث»، ثم تسليمه لاحقاً كجندي. وبعد يومين، غادر فيودور ميخائيلوفيتش سانت بطرسبرغ وذهب إلى سيبيريا مقيداً بالأغلال.
* في العاشر من يناير 1850 وصل دوستويفسكي إلى توبولسك. والتقي هناك مع زوجات الديسمبريين، اللاتي أهدين الإنجيل للكاتب.
* الأعوام 1850 ـ 1854 هي سنوات السجن. وكان دوستويفسكي قد أمضاها كعاملٍ مُساعد في قلعة أومسك.
* في يناير عام 1854 تم تجنيد فيودور ميخائيلوفيتش كجندي في كتيبة الخط السابع في سيميبالاتينسك. وبعد عام ونصف، تمت ترقيته إلى رتبة ضابط مساعد، وسرعان ما ترقّى إلى رتبة مُلازم ثانٍ بجهود معارفه.
* في ربيع عام 1857 استعاد دوستويفسكي النبل بالوراثة وحقوق النشر. لكنه بقي لمدة 18 عاماً أخرى تحت مراقبة الشرطة.

* في نفس العام تزوج دوستويفسكي من الأرملة ماريا دميترييفنا إيسايفا.
* أثناء قضائه فترة عقوبته، كان فيودور ميخائيلوفيتش يجدُ وقتاً للإبداع الأدبي. وكجنديّ، بدأ في كتابة دفتر مُذكرات «سيبيريا»، والتي تضمنت مذكرات سجن الأشغال الشاقة، والتي أصبحت فيما بعد مصدراً لمواد «مُذكرات من منزل الأموات» وروايات أخرى. وبعد عودة حقوق النشر، نشر شقيقه ميخائيل قصة «البطل الصغير» في سانت بطرسبرغ، بعد ذلك بقليل، ظهرت قصتاه «حلم العم» و«قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها»، المكتوبتان في سيبيريا. وأيضاً، بناءً على طلب شقيقه، لجأ ميخائيل دوستويفسكي إلى النقاد، لكن كاتكوف ونيكراسوف وكرايفسكي تجاهلوا هذه الأعمال.
* في الثامن عشر من مارس عام 1859 فُصِلَ فيودور ميخائيلوفيتش من العمل برتبة ملازم ثان «بسبب المرض». وسرعان ما غادر سيميبالاتينسك مع زوجته وابنها من زواجها الأول. وكان لدى الأسرة إذن للعيش في تفير، ولكن ليس لها الحق في دخول مقاطعتي موسكو وبطرسبورغ.
* في ديسمبر من العام نفسه، وبعد حصوله على الإذن المناسب، عاد دوستويفسكي إلى سانت بطرسبورغ وأصطحب عائلته إلى هناك.
* استأنف الكاتب نشاطه الإبداعي بشكل فعال في بطرسبورغ. وأخذ ينشر المقالات، ويُحرر، ويكتب.. وسرعان ما صدرت روايته «مُذلون ومُهانون»، وبعد فترةٍ قليلة صدرت رواية «مُذكرات من منزل الأموات». نشر فيودور ميخائيلوفيتش سوية مع شقيقه ميخائيل في مجلتي «الزمان» و«العصر». وأصبح الأخوان دوستويفسكي مُنظّرين

لما يُسمى بـ«تيار النزعة القومية الروسية» وهي حركة من صنف أنصار النزعة السُلافية. وصدرت في مجلة «العصر» قصة فيودور ميخائيلوفيتش «مُذكرات من منزل الأموات».

* بين عامي 1862 ـ 1863 قام دوستويفسكي برحلتين متتاليتين إلى الخارج. فزار ألمانيا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا وإنجلترا. وخلال رحلته الثانية إلى باريس التقي مع أ. ب. سوسلوفا. في بادن، خسر جميع أمواله «حدّ الإفلاس تماماً» في القمار.

* في نهاية عام 1863 بعد عودته إلى روسيا، نقل دوستويفسكي عائلته أولاً إلى فلاديمير، ثم إلى موسكو، فقد كان مناخ بطرسبورغ مُضرّاً لزوجته المريضة بالسل الرئوي.

* في أبريل 1864 توفيت ماريا دميترييفنا.

* في يونيو 1864 فقد دوستويفسكي شقيقه ميخائيل. وبعد وفاته، كان على فيودور ميخائيلوفيتش أن يهتمّ بإصدار مجلة «العصر» التي كانت عليها ديون كبيرة. وبقيت المجلة لمدة عام فقط، ولم يسدّد الكاتب الدين إلا في نهاية حياته.

* في سبتمبر من العام نفسه تُوفي غريغورييف صديق فيودور ميخائيلوفيتش.

* في يوليو 1865 غادر دوستويفسكي إلى فيسبادن. وفي الخريف، أرسل قصة لمجلة «البشير الروسي».

* في عام 1866 أمضى دوستويفسكي الصيف مع أخته في ضواحي موسكو. وكان يعمل في ذات الوقت على روايتي «الجريمة والعقاب»

و«المقامر». وقد كان سبب العبء المزدوج هو التعاقد مع دار نشر، إذ تعهد الكاتب بتقديم رواية جديدة له في الموعد المُحدّد. فشرع بكتابة رواية «المقامر» لدار النشر. وفي أكتوبر جاءت كاتبة الاختزال أ. غ. سنيتكينا إلى دوستويفسكي. فأملى عليها الرواية. وبعد مرور عام، أصبحت سنيتكينا زوجة الكاتب الثانية.

* **ما بين أبريل 1867 ـ يوليو 1871 أقامت عائلة دوستويفسكي في الخارج** (ألمانيا، سويسرا، إيطاليا).
* **في عامي 1867 ـ 1868** واصل العمل على رواية «الأبله».
* **في عام 1868** وُلدت صوفيا ابنة الكاتب في شهر فبراير. ولم تعِش الفتاة سوى ثلاثة أشهر وتوفيت فجأة في شهر مايو، فحزن فيودور ميخائيلوفيتش على هذه الخسارة بشدة.
* **في سبتمبر 1869** وُلدت ابنة دوستويفسكي الثانية، لوبوف.
* **في يوليو 1871** ما أنّ تمكن من العودة إلى روسيا، أنجبت سنيتكينا دوستويفسكايا ابناً لزوجها اسمه فيودور.
* **في عام 1872** كان دوستويفسكي يحضر اجتماعات «أيام الأربعاء» التي يُنظمها ناشر مجلة وجريدة «المواطن» الأمير ف. ب. ميشيرسكي. في ديسمبر من العام ذاته، أصبح فيودور ميخائيلوفيتش محرراً في «المواطن».
* **في عام 1873** صدر في «المواطن» «يوميات كاتب»، ودراسات سياسية بعنوان «أحداث خارجية»، ومقالات وملاحظات بقلم دوستويفسكي.

* في عام 1874 توقف فيودور ميخائيلوفيتش عن العمل في التحرير لـ«المواطن». وكان السبب في ذلك، على وجه الخصوص، الصدامات مع الأمير ميشيرسكي، الذي كان يسعى إلى أن يعمل للصحيفة الأسبوعية إصداراً مستقلاً. لكن توقف دوستويفسكي عن العمل في التحرير لم يمنعه من التعاون لاحقاً مع «المواطن».

* وفي نفس الوقت تقريباً، في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر، أعاد دوستويفسكي علاقة كانت قد انقطعت منذ سنوات عديدة. حيث تواصل مرة أخرى مع نيكراسوف وسالتيكوف ـ شيدرين. وفي عام 1874 تم نشر رواية «المراهق» في «مذكرات الوطن». وقد ازدادت شعبية دوستويفسكي بوصفه كاتباً.

* في أغسطس من عام 1875 وُلد أليكسي الابن الثاني للكاتب.

* في نفس العام استأنف فيودور ميخائيلوفيتش إصدار مجلته التي يُديرها بنفسه «يوميات كاتب». وتم الإعلان عن توقف إصدار مجلة «يوميات كاتب» في عام 1877.

* في عام 1877 انتُخِبَ دوستويفسكي عضواً مُراسلاً في أكاديمية سانت بطرسبورغ للعلوم. وفي ذات العام توفي نيكراسوف. فألقى دوستويفسكي خطاباً في جنازته.

* في عام 1878 توفي أليكسي دوستويفسكي مريضاً، تماماً مثل معاناة والده، بنوبة صرع في سن الثالثة من عمره. بحثاً عن المواساة بعد وفاة ابنه، زار دوستويفسكي دير أوبتينا بوستين، حيث تحدث مع القديس أمبروز.

* في مايو من عام 1879 شارك فيودور ميخائيلوفيتش في المؤتمر

الأدبي الدولي في لندن. وانتُخِب هناك عضواً في اللجنة الفخرية للجمعية الأدبية الدولية.

* في نهاية حياته، شارك الكاتب بفعاليةٍ في الأنشطة الاجتماعية، فكان يزور دور الأيتام وإصلاحيات الجانحين القاصرين، وحضر محاكمة فيرا زاسوليتش وإعدام ملوديتسكي (أطلق النار على م. ت. لوريس ـ ميليكوف)، يُجيب على رسالة الطلاب بشأن ضرب المظاهرة الطلابية من قِبل أصحاب المتاجر.
* في عام 1880 كُتِبَت رواية دوستويفسكي الأخيرة «الأخوة كارامازوف».
* في بداية عام 1881 تحدث الكاتب عن خططه للمستقبل: حيث كان سيُشرع بإعادة إصدار مجلة «اليوميات»، وبعد سنوات قليلة يبدأ بكتابة الجزء الثاني من رواية «الأخوة كارامازوف». لكن هذه الخطط لم يكن مقدراً لها أن تتحقق. ففي ليلة السادس والعشرين من يناير، بدأ الدم ينزف من فم دوستويفسكي.
* في التاسع من فبراير عام 1881 توفي فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي في سانت بطرسبورغ. ودُفِن في دير ألكسندر نيفسكي.

سيرة حياة إي. س. تورغينيف في سطور

* في الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1818 ولد إيفان سيرغييفيتش تورغينيف في مدينة أوريول وسط عائلة نبيلة. أمضى طفولته في ضيعة والدته في سباسكويه ـ لوتوفينوفو، في مقاطعة أوريول.

* في عام 1827 انتقلت عائلة تورغينيف إلى موسكو. وأُدخِل إيفان تورغينيف في مدرسة وايدنهامر الداخلية، حيث بقي فيها لمدة عامين تقريباً.

* في أغسطس ـ نوفمبر عام 1829 التحق تورغينيف وشقيقه نيكولاي في المدرسة الداخلية التابعة للمعهد الأرمني (معهد لازاريف لاحقاً).

* في سبتمبر عام 1833 تم تسجيل تورغينيف، بعد الاختبارات، طالباً في جامعة موسكو في قسم آداب اللغات.

* في خريف عام 1834 عند انتقال عائلته إلى سانت بطرسبورغ، التحق إيفان تورغينيف بجامعة سانت بطرسبورغ في قسم علم اللغة وآدابها في كلية الفلسفة. وفي شهر نوفمبر، توفي والده، وفي سبتمبر، أكمل قصيدته الدرامية «ستينو».

* في عام 1835 تعرف على ت. ن. غرانوفسكي.

* في عام 1836 تخرج من جامعة سانت بطرسبورغ. وعمل على ترجمة مسرحيتي «عُطيل»، و«الملك لير» لشكسبير، و«مانفريد» لبايرون. وفي شهر أغسطس صدرَ أول مؤلف لتورغينيف في «مجلة وزارة التعليم العام»، وهو دراسة نقدية لكتاب يوميات سفر أ. ن. مورافيوف.
* في عام 1837 رأى تورغينيف بوشكين في حفلة موسيقية صباحية في قاعة إنغلهاردت، وبعد بضعة أيام ودعَ جسد الشاعر العظيم. اجتاز تورغينيف امتحان درجة الدكتوراه.
* في عام 1838 صدرت أول قصيدة مطبوعة لتورغينيف بعنوان «المساء» في مجلة «المُعاصر». وفي شهر مايو، رحل إلى ألمانيا للالتحاق بجامعة برلين. وتعرف هناك على ن. ف. ستانكيفيتش.
* في خريف عام 1839 عاد تورغينيف إلى روسيا. وفي نهاية العام، التقى بليرمونتوف في أمسية عند الأميرة شاخوفسكايا وبحفلة تنكرية في مُجمع النُبلاء ليلة رأس السنة.
* في منتصف يناير عام 1840 غادر تورغينيف بطرسبورغ إلى الخارج مع ب. إي. كريفتسوف، وفي الربيع أصبح صديقاً لستانكيفتيش في روما. وفي يوليو تعرف على م. أ. باكونين وكان هذا التعارف بداية لصداقتهما.
* في مايو عام 1841 غادر تورغينيف برلين بعد أن أنهى دراسته في الجامعة. قضى فصلي الربيع والصيف في سباسكويه. وفي الخريف زار ضيعة آل باكونين وضيعة بريموخين.
* في مارس عام 1842 سُمِحَ لتورغينيف بأداء الاختبارات للحصول على درجة الماجستير في الفلسفة. في أبريل وُلِدت ابنته بولينا. في

مايو أنهي امتحانات الماجستير. في يوليو سافر إلى الخارج. وعند عودته من هناك، تعرف على بيلينسكي في نهاية العام.

* **في ربيع عام 1843** نشر قصيدة «باراشا». سافر في هذا العام إلى سباسكويه. وفي منتصفه التحق بالعمل في مكتبٍ وزارة الداخلية برتبة سكرتير المجلس. وفي نوفمبر، تعرف على بولينا فيادرو التي جاءت إلى بطرسبورغ في جولة فنية مع فرقة الأوبرا الإيطالية. صدرت له في مجلة «مُذكرات الوطن» قصائد وأعمال درامية ومقالات نقدية.
* **في صيف عام 1844** قام بلقاءات عديدة مع بيلينسكي في الداتشا في ضواحي بطرسبورغ. وفي نوفمبر نُشِرَتْ قصة طويلة له بعنوان «أندريه كولوسوف» في «مُذكرات الوطن». وفي هذا العام أصبح صديقاً لنيكراسوف.
* **ربيع عام 1845** قدم استقالته من العمل في الوزارة وسافر إلى الخارج. وعند عودته إلى بطرسبورغ تعرف على دوستويفسكي.
* **في بداية عام 1846** صدرت مجموعة مؤلفات أدبية نشرها نيكراسوف بعنوان «مُنتخبات مُختارة من بطرسبورغ»، حيث نُشِرت قصة تورغينيف «ثلاث صور»، وقصيدته «الإقطاعي» وعدد من الترجمات الشعرية.
* **في يناير عام 1847** صدرَ العدد الأول من مجلة «المُعاصر» المُعاد تنظيمها، حيث نُشِرَت قصائد تورغينيف، ومقالته عن كوكولنيك[1]،

---

(1) نيستور فاسيليفيتش كوكولنيك، وهو كاتب نثر وشاعر ومترجم وكاتب مسرحي روسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومؤلف نصوص رومانسية شعبية. (المترجم).

ومقالة هَجْويّة وقصته الأولى من «مُذكرات صياد»، «خور وكالينيتش». ونُشِرَت في مجلة «مُذكرات الوطن» قصة «بريتّير» ومقالة عن قصص القُوزاقي ف. لوغانسكي (فلاديمير دال). وفي النصف الثاني من شهر يناير، غادر إلى برلين. وبدءاً من ذلك الحين، أخذت تُنشر قصصه من سلسلة «مُذكرات صياد» في مجلة «المُعاصر» من عددٍ إلى آخر. وفي يونيو، التقى تورغينيف وبيلينسكي في مدينة زالتسبرون.

* في فبراير عام 1848 كان تورغينيف شاهداً على أحداث الثورة في باريس. وفي ذلك الحين، أصبح صديقاً مع غيرتسن. بعد أن تلقى نبأ وفاة بيلينسكي (السادس والعشرين من مايو عام 1848)، طلب تورغينيف من نيكراسوف نشر «مُذكرات صياد» لصالح عائلة صديقه الراحل. في أكتوبر، قام برحلة طويلة إلى فرنسا.

* في أبريل عام 1849 أرسل تورغينيف مسرحيته الكوميدية الكاملة «الأعزب» إلى شيبكين. وجرى عرضها الأول في بطرسبورغ في شهر أكتوبر، وتم تخصيص ريعها لشيبكين. في ديسمبر، تم عرض المسرحية الكوميدية «إفطار عن القائد».

* في يونيو عام 1850 غادر تورغينيف باريس مُتوجهاً إلى روسيا. وقضى الصيف في مناطق مسقط رأسه. في أكتوبر، أرسل ابنته من سانت بطرسبورغ إلى باريس، إلى بورلين فياردوت. في السادس عشر من نوفمبر، توفّيت والدته.

* في بداية عام 1851 أصبح صديقاً لعائلة س. ت. أكساكوف. في أكتوبر، زار م. س. شيبكين غوغل في موسكو. في الثالث من نوفمبر، حضر مسرحية «المفتش العام» التي قرأها غوغل. جرى العرض الأول

لكوميديا «لا يحدث الخلل إلا في مواطن الضعف» في بطرسبورغ والتي تم تخصيص ريعها لـ ن. ف. ساموليوفا.

* في يناير عام 1852 جرى العرض الأول لكوميديا «بلا نقود» في بطرسبورغ. ونُشِرت في العدد الثاني من مجلة «المعاصر» قصته «ثلاثة لقاءات». وفي أبريل ـ مايو، اعتُقِل تورغينيف ونُفي من بطرسبورغ للإقامة في سباسكويه بسبب مقالة نشرها عن وفاة غوغل. وأمضى سنة ونصف سنة هناك في المنفى. في الصيف، خرج إلى النور إصدار مُستقل من «مُذكرات صياد» في موسكو. وبأمر من نيكولاي الأول، تم عزل الرقيب الذي سمح بنشر هذا الإصدار من منصبه.

* في مارس عام 1853 وصل إلى ضيعة سباسكويه التابعة لـم. شيبكين. أُلقيت على مسامع إيفان سيرغييفيتش تورغينيف كوميديا أوستروفسكي «لا تشغل مقاماً لا يُناسبك». وفي نهاية الشهر، غادر تورغينيف ضيعة سباسكويه خِلسةً متوجهاً إلى موسكو لبضعة أيام للقاء بولينا فياردوت. في نوفمبر تلقى إشعاراً بانتهاء المنفى. في التاسع من ديسمبر، وصل تورغينيف إلى بطرسبورغ. وفي الثالث عشر من ذات الشهر، أقامت هيئة تحرير مجلة «المُعاصر» مأدبة غداء على شرف عودته.

* في أبريل عام 1854 نُشِرَت مقالة تورغينيف عن قصائد ف. إي. تيوتشيف في العدد الرابع من مجلة «المُعاصر». في مايو، حلَّ ضيفاً على عائلة أكساكوف في ضيعة أبرامتسيفو. قضى فصل الصيف في ضواحي بيترغوف. في سبتمبر، سافر هو ونيكراسوف إلى ضيعة سباسكويه.

* في عام 1855 نُشِرت كوميديا «شهرٌ في القرية» في العدد الأول من مجلة «المُعاصر». في الفترة من الثاني عشر إلى الرابع عشر من يناير، كان تورغينيف حاضراً في احتفالات الذكرى السنوية لجامعة موسكو. صدرت في هذا العام قصته «ياكوف باسينكوف» في العدد الرابع من مجلة «المُعاصر». في الصيف، عَمِلَ على رواية «رودين» في ضيعة سباسكويه. في السابع من أكتوبر، حضر جنازة غرانوفسكي في موسكو وكتب مقالاً عنه. وفي هذا العام أيضاً، قام بقراءة روايته «رودين» في حلقة مجلة «المُعاصر». في نوفمبر، جاء ل. ن. تولستوي إلى تورغينيف للتعرف عليه، بعد أن وصل من سيفاستوبول إلى سانت بطرسبورغ. في الخامس من ديسمبر، كان هناك غداء في منزل تورغينيف، والذي تعرف فيه ن. ب. أوغاريوف على ل. ن. تولستوي. في الرابع عشر من ديسمبر، تلا أوغاريوف على مسامع الحاضرين في أمسية عند تورغينيف قصيدته «طريق الشتاء».
* في عام 1856 نُشِرت في العددين الأول والثاني من مجلة «المُعاصر» رواية «رودين». في بداية العام، أبرم تورغينيف، وليف تولستوي، وأوستروفسكي، وغريغوروفيتش «اتفاقاً مُلزماً» مع ناشري مجلة «المُعاصر» (نيكراسوف وبانابيف) بشأن المشاركة الاستثنائية في هذا الإصدار. في نهاية شهر فبراير، تلا أوستروفسكي مسرحية «صورة عائلية» (تسميتها الأولى «صورة سعادة عائلية») في منزل تورغينيف. في مايو، وصل إلى ضيعة سباسكويه. وفي يونيو، زاره ل. ن. تولستوي إلى هناك. في يوليو، غادر تورغينيف من بطرسبورغ إلى الخارج. في أغسطس، التقى بغيرتسين في لندن. في أكتوبر، شرع

بالعمل على رواية «عش النبلاء». في نوفمبر، صدرت في بطرسبورغ «روايات وقصص إي. س. تورغينيف للفترة من 1844 إلى 1856 في ثلاثة أجزاء». وبحلول نهاية العام، بدأ بإرسال مواد إلى غيرتسين في مطبوعاته التي صدرت في لندن.

* في نهاية يناير عام 1857 جاء نيكراسوف إلى تورغينيف في باريس قادماً من روما. في فبراير، وصل ل. ن. تولستوي إلى باريس. وقام تورغينيف برحلة معه إلى مدينة ديجون. صدرت في العدد الثالث من مجلة «المُعاصر» كوميديا «العالة». في مايو، ذهب إلى غيرتسين في لندن. واثناء فترة اقامته في لندن، تعرفَ تورغينيف على كارلايل وتاكيراي وماكولاي. في يونيو، شرعَ بالعمل على قصة «آسيا» في مدينة زيتسينغ. وفي أغسطس، قام بلقاءات مع فيت، وغونتشاروف، وبوتكين في باريس. وكان غونتشاروف قد تلا عليهم رواية «أبلوموف» التي تمّ الانتهاء منها حديثاً. في أكتوبر، سافر إلى روما. وتعرف على الرسام ألكساندر إيفانوف. في ديسمبر، استأنف العمل على رواية «عشّ النبلاء».

* في عام 1858 نُشِرَت قصة «آسيا» في العدد الأول من مجلة «المعاصر». في مارس، غادر تورغينيف مُتوجهاً إلى فيينا. في أبريل، رحل إلى لندن. وفي مايو، أخبر غيرتسين من باريس عن منع بيع إصدارات معينة من دار الطباعة المجانية في لندن هناك. في أوائل يونيو، رحل إلى روسيا. وفي الصيف والخريف، أقبل على عملٍ شاق في سباسكويه على رواية «عشّ النبلاء»؛ وفي أكتوبر، أنهى العمل عليها. في نهاية أكتوبر، كان أنينكوف في شقة تورغينيف في بطرسبورغ، فتلا

تورغينيف، بناءً على طلبه، روايته «عشّ النبلاء» بحضور نيكراسوف، دروجينين، بيسيمسكي، غونتشاروف وآخرين.

* في عام 1859 نُشِرت رواية «عش النبلاء» في العدد الأول من مجلة «المُعاصر». في يناير، انتُخِب تورغينيف عضواً عاملاً في جمعية مُحبّي الأدب الروسي. في فبراير، أُقيمت في شقته مأدبة غداء لمؤسسي الصندوق الأدبي[1]. في بداية الربيع، عمل في ضيعة سباسكويه على خطة رواية «في العشية». في نهاية أبريل، ارتحل إلى الخارج. وفي مايو، سافر من باريس إلى لندن. وفي ذلك الحين، خرجت إلى النور «القصص الشعبية الأوكرانية» لماركو فوفتشكا بترجمة وتقديم تورغينيف. وفي أغسطس، صدرت طبعة مُستقلة من رواية «عشّ النبلاء». في سبتمبر، عاد إلى روسيا. وفي الخريف، واصل العمل على رواية «في العشية» في سباسكويه. في الثامن من نوفمبر، أُنتُخِب عضواً في لجنة الصندوق الأدبي بوصفه واحداً من مؤسسيها.

* في العاشر من يناير عام 1860 ألقى خطاباً في بطرسبورغ بعنوان «هاملت ودون كيشوت» في قراءته الأولى العامة لصالح الصندوق الأدبي. ونُشِرت روايته «في العشية» في العدد الأول والثاني من مجلة «البشير الروسي». في منتصف فبراير، طلب تورغينيف من نيكراسوف عدم نشر مقالة دوبرولوبوف في مجلة «المُعاصر» حول رواية «في العشية» باعتبار هذه المقالة «غير مُنصفة ولاذعة». في مارس، نُشِرت قصة «الحب الأول» في العدد الثالث من مجلة «مكتبة

---

(1) الصندوق الادبي ـ التسمية الرسمية: جمعية تقديم الإعانات المالية للعلماء والكتاب المحتاجين. (المترجم).

القراءة». في التاسع والعشرين من مارس، جرى مجلس تحكيمي بين تورغينيف وغونتشاروف، حدثت على إثره القطيعة بينهما. في أبريل، غادر باريس. وفي يوليو، سافر إلى لندن للقاء غيرتسين. في سبتمبر، بدأ العمل على رواية «الآباء والبنون». في الرابع والعشرين من نوفمبر، انتُخِبَ بالإجماع في اجتماع قسم اللغة الروسية وآدابها عضواً مُراسلاً في أكاديمية العلوم.

* في مارس عام 1861 طلب تورغينيف من غيرتسين أن يكتب في صحيفة «كولوكول»[1] (وتعني بالروسية الجرس) عن وفاة تاراس شيفتشينكو. في أبريل، وصل تورغينيف إلى مسقط رأسه. في السادس والعشرين في مايو، كان هو وتولستوي في منزل فيت في ستيبانوفنا. في السابع والعشرين من مايو، تشاجر مع تولستوي شجاراً كاد أن ينتهي بمبارزة. في يوليو، أنهى العمل على رواية «الآباء والبنون». في نهاية أغسطس، غادر سباسكويه متوجهاً إلى موسكو، حيث قدم روايته إلى هيئة تحرير مجلة «البشير الروسي». وبعد بضعة أيام، توجه إلى بطرسبورغ، ومنها ارتحل إلى باريس في سبتمبر. في الخامس والعشرين من سبتمبر، استدعى غيرتسن بإصرار للمجيء إلى هناك، مُبلغاً إياه «بضرورة لقائهما».

* في يناير عام 1862 وفي رسالة أرسلها إلى غيرتسين، تعهد تورغينيف بمنح باكونين مبلغاً سنوياً قدره 1500 فرنك. في مايو، سافر إلى لندن لثلاثة أيام للقاء غيرتسين وباكونين. وبناءً على طلب باكونين، أخذ

(1) أول صحيفة ثورية روسية، كان يُصدرها كل من أ. إي. غيرتسين ون. ب. أوغاريوف في المهجر في دار الطباعة الروسية الحرّة في الأعوام 1857 ـ 1867. (المترجم).

على عاتقه مُعاملات السماح بانتقال زوجته من سيبيريا إلى مقاطعة تفير. في العشرين من مايو، رحل إلى بطرسبورغ. وفي يونيو، توجه إلى ضيعة سباسكويه. وفي أغسطس، ارتحل إلى خارج البلاد. في سبتمبر، خرج إلى النور إصدار مُنفصل من رواية «الآباء والبنون». في ديسمبر، نُشِر خطاب تورغينيف في مجلة «سيفيرنايا بتشيلا» (وتعني بالروسية: نحلة الشمال) بشأن رفضه التعاون مع مجلة «المُعاصر».

* في يناير عام 1863 أخبر تورغينيف غيرتسين أنّه تلقى استدعاءً للحضور إلى مجلس الشيوخ بشأن «قضية الاثنين والثلاثين»[1]. وفي مارس، أرسل إفادة خطية بشأن هذه القضية. وفي سبتمبر، بعد تلقيه استدعاءً ثانياً للحضور إلى مجلس الشيوخ، طلب تورغينيف تأجيل المثول أمامه حتى نوفمبر. وفي نوفمبر، التمس مرة أخرى طلباً بالتأجيل.

* في يناير عام 1864 وصل تورغينيف إلى سانت بطرسبورغ للإدلاء بإفادته في مجلس الشيوخ. وفي السابع والثالث عشر من ذات الشهر، أدلى بتلك الإفادات. نُشِرت في صحيفة «كولوكول» مقالة صغيرة لغيرتسين، أدان فيها بشكلٍ لاذعٍ توجّه تورغينيف برسالة إلى ألكسندر الثاني فيما يتعلق بـ«قضية الاثنين والثلاثين». في الحادي والعشرين من يناير، تصالح تورغينيف مع غونتشاروف. وفي الثامن والعشرين من يناير، سُمِح لتورغينيف بموجب قرار مجلس الشيوخ بالسفر إلى الخارج. في ذات العام، نُشِرت روايته «الأشباح» في العدد الأول

---

(1) تعتبر قضية الأشخاص المتهمين بعلاقات مع دعاة لندن (1862 ـ 1865) واحدة من كبريات المحاكمات السياسية في ستينيات القرن التاسع عشر في الإمبراطورية الروسية. (المترجم).

من مجلة «العصر». في فبراير رحل إلى خارج البلاد. وفي الأول من يونيو، أُعفِي بقرارٍ من مجلس الشيوخ من المسؤولية في «قضية الاثنين والثلاثين».

* في الثالث عشر من فبراير عام 1865 جرى حفل زفاف بلينا ابنة تورغينيف وغاستون بروير في باريس. في مايو، وصل تورغينيف إلى روسيا. في التاسع والعشرين من يونيو، كان مُتواجداً في ضيعة سباسكويه. وبعد ذلك، غادر من جديد إلى الخارج. في سبتمبر، خرجت إلى النور الطبعة الثالثة من مؤلفاته. في أكتوبر، بدأ العمل على رواية «الدخان».

* في مايو عام 1866 سافر إلى ابنته في بلدة روجيمونت في سويسرا. في يوليو، وصل غونتشاروف إلى مدينة بادن بادن للقاء تورغينيف لبضعة أيام.

* في يناير عام 1867 أنهى تورغينيف العمل على رواية «الدخان». في فبراير. وصل إلى بطرسبورغ وتلا روايته في حلقة ودية. في مارس تعرف على د. إي. بيساريف. نُشِرَت في العدد الثالث من مجلة «البشير الروسي» رواية «الدخان». في مايو، أرسل إلى غيرتسين نسخة من روايته وعرض عليه استئناف المُراسلات بينهما من جديد. فرد عليه غيرتسين برسالة صلح. طلب تورغينيف من بيساريف إبداء رأيه حول رواية «الدخان». في يوليو، حدث شجار بينه وبين دوستويفسكي.

* في عام 1868 نُشِرَت في العدد الأول من مجلة «بشير أوربا» قصة تورغينيف «العميد»، وفي العدد الأول من مجلة «البشير الروسي» قصة « الملازم إيرغونوف». في فبراير كتب في رسالة إلى ب. إي.

بوريسوف أنه «قرأ رواية تولستوي (الحرب والسلام) بمتعةٍ كبيرة». في يناير، سافر إلى ضيعة فلوبير ـ كرويسي. في ديسمبر، شرع بالعمل على «مُذكرات أدبية».

* في عام 1869 نُشِرت في العدد الأول من «البشير الروسي» قصة تورغينيف «التعيسة». وفي العدد الرابع من مجلة «بشير أوروبا» نُشِرَت «مُذكرات حول بيلينسكي». عمل على قصة «الير ملك السهوب» وحكاية «قصة غريبة».

* في الخامس عشر من يناير عام 1870 جرى لقاء تورغينيف الأخير مع غيرتسين في باريس. في الثاني والعشرين من يناير، عَلِمَ تورغينيف في بادن بادن بوفاة غيرتسين. في يوليو ـ سبتمبر، نُشِرَ كتاب تورغينيف «مُراسلات عن الحرب الفرنسية البروسية» في صحيفة «وقائع سانت بطرسبورغ».

* في فبراير عام 1871وصل إلى بطرسبورغ. وتعرف على النحات م. أنتوكولسكي. في السابع والعشرين من فبراير، ألقى كلمة في نادي الفنانين في صباحٍ أدبي وموسيقي لصالح أنصار غاريبالدي[1] مع قراءة قصة «الوكيل». في مارس، ألقى كلمة في موسكو مع قراءة لقصصه من «مذكرات صياد». سافر إلى خارج البلاد. في أبريل، عمل على رواية «مياه الربيع». في أغسطس، سافر إلى إدنبرة للمشاركة في الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد والتر سكوت.

(1) أنصار غاريبالدي هم حراس متطوعون قاتلوا في الأربعينيات إلى الستينيات من القرن التاسع عشر تحت قيادة غاريبالدي من أجل تحرير إيطاليا من نير النمسا وتوحيدها الوطني. (المترجم).

* في عام 1872 نُشِرَتْ في العدد الأول من مجلة «بشير أوروبا» رواية «مياه الربيع». في يناير، تعرف تورغينيف على إيميل زولا، وألفونس دوديه. وجرى في هذا العام العرض الأول لمسرحية «شهر في القرية»، وتلا فلوبير على مسامع تورغينيف مسرحية «اختبار القديس أنتوني». في سبتمبر، حلّ ضيفاً على ج. ساند في نوغان. وفي نهاية العام، التقى في باريس مع ب. ل. لافروف الذي هاجر من روسيا بعد هروبه من المنفى.
* في يناير عام 1873 أخبر تورغينيف أصدقاءه عن خُطته لرواية «الأرض البكْر» التي كان ينوي بها إنهاء مسيرته الأدبية. أجرى لقاءات مع جورج ساند وغوستاف فلوبير.
* في مارس عام 1874 في مجموعة «المُساهمة»، التي نُشِرت لصالح ضحايا الجوع، نُشِرت قصة تورغينيف «القوى الحية». في أبريل، صدرت قصة «بونين وبابورين» في العدد الرابع من مجلة «بشير أوروبا».
* في يناير عام 1875 حلَّ ضيفاً على غليب أوسبينسكي في باريس. في فبراير، كان هناك صباح أدبي موسيقي لصالح قاعة المُطالعة الروسية في باريس بمشاركة تورغينيف، غليب أوسبينسكي، وب. فياردوت وآخرين. في مايو، جرى الصباح الثاني الأدبي الموسيقي لصالح قاعة المُطالعة الروسية بمشاركة تورغينيف، ب. فياردوت وأ. بيسيمسكي. في يوليو، قرأ تورغينيف وأ. ك. تولستوي في كارلسباد لصالح مُتضرري حرائق مورشانسك. حصل على خاتم بوشكين هديةً من نجل الشاعر جوكوفسكي. في سبتمبر، حلَّ م. سالتيكوف شيدرين

ضيفاً عليه في بلدية بوجيفال. في أكتوبر كتب تورغينيف مذكرات عن ت. غ. شيفتشينكو.

* في يناير عام 1867 نُشِرت في العدد الأول من «بشير أوروبا» قصة «الساعة». في فبراير، بدأ العمل على رواية «الأرض البكْر». في أبريل، عَرَّفَ تورغينيف سالتيكوف شيدرين على إيميل زولا وغوستاف فلوبير. في يونيو، عَلِم فور وصوله إلى موسكو بوفاة جورج ساند وكتب مقالة عن وفاتها. كانت هناك مساع من جانب تورغينيف بشأن الإعانة المالية لميكلوخو ماكلاي[1]. في 15 يوليو، أنهى العمل على رواية «الأرض البكْر». غادر من ضيعة سباسكويه إلى بطرسبورغ، ومن ثم إلى الخارج. في ديسمبر، أجرى لقاءات مع موباسان.
* في عام 1877 نُشِرَت روايته «الأرض البكْر» في العدد الأول من «بشير أوروبا». وفي بداية العام، أجرى لقاءات مُتكررة مع ب. ل. لافروف. نُشِرت في العدد الرابع من «بشير أوروبا» «أسطورة يوليان الرحيم»، وفي العدد الخامس من ذات المجلة نُشِرت رواية «هيروديا» لفلوبير؛ كلتاهما بترجمة تورغينيف. في مايو، حضر فور وصوله من الخارج إلى بطرسبورغ محاكمة اتحاد عمال جنوب روسيا بحضور خاص لمجلس الأعيان. في يوليو، أجرى لقاءه الأخير مع نيكراسوف ورحل إلى الخارج. في ديسمبر، تمّ تنظيم جمعية لمساعدة الفنانين الروس، والتي ضمت أنتوكولسكي، بوغوليوبوف، تورغينيف وآخرين.

---

(1) نيكولاي ميكلوخو ماكلاي هو اختصاصّي في علم الإثنوغرافيا، وعالم أنثروبولوجي، وبيولوجي ومُستكشفٌ روسي، درس السكان الأصليين لجنوب شرق آسيا وأستراليا وأوقيانوسيا، بما في ذلك سكان بابوا في الساحل الشمالي الشرقي لغينيا الجديدة، المُسماة بساحل ماكلاي. (المُترجم).

* في يناير 1878 تلقى نبأ وفاة ن. أ. نيكراسوف. في مايو، وصلت رسالة صلح من ل. ن. تولستوي إلى إيفان تورغينيف. ورداً على هذه الرسالة، كتب أنّه «مستعدّ بأكبر قدر من الحماس لإعادة الصداقة القديمة...». في يونيو، جرى افتتاح المؤتمر الأدبي الدولي في باريس، حيث انتُخِب نائباً للرئيس. في أغسطس، فور وصوله إلى البلاد، حلّ ضيفاً على ل. ن. تولستوي في ياسنايا بوليانا. وخلال هذا العام، ابتدع تورغينيف جزءاً كبيراً من «قصائد النثر».

* في يناير 1879 توفي شقيق تورغينيف الأكبر نيكولاي سيرغييفيتش. في السابع عشر من يناير، جرى العرض الأول في بطرسبورغ، تكريماً لـ م. غ. سافينا، لمسرحية «شهر في القرية». في فبراير، التقى بجيرمان لوباتين[1]. وحذره من الاعتقال الوشيك وأقنعه بالرحيل إلى الجنوب. في الرابع من مارس، ألقى خطاباً أمام طلاب موسكو في حفلٍ موسيقي لصالح الطلاب المعدومين. في التاسع من مارس، ألقى خطاباً في بطرسبورغ في قراءة لصالح الصندوق الأدبي لقصة «الوكيل». في السادس عشر من مارس، ألقى خطاباً آخراً في قراءة لصالح الصندوق الأدبي لقصة «بيريوك». وقد قرأ برفقة م. غ. سافينا مشهداً من مسرحية «الريفية». في مايو، قرأ في باريس في صباحٍ أدبي موسيقي لصالح المستعمرة الروسية حكاية سالتيكوف شيدرين «قصة عن الطريقة التي قام بها رجل بإطعام جنرالين» ومقتطف من

(1) جيرمان لوباتين، وهو رجل سياسي روسي، ثوري، عضو المجلس العام للأممية الأولى، وأحد مؤلفي الترجمة الأولى لكتاب كارل ماركس «رأس المال» إلى اللغة الروسية. (المترجم).

«مذكرات صياد». في يونيو، سافر تورغينيف إلى أوكسفورد لحضور منحه درجة الدكتوراه في القانون العرفي.

* في فبراير عام 1880 عاد إلى بلده. وأجرى لقاءات مع دائرة من كُتّاب النثر الشعبويين الشبان (زلاتوفراتسكي، نعوموف، غليب أوسبينسكي وآخرون). في مارس، زار معرض الرسامين المُتنقّلين في بطرسبورغ. في الثلاثين من مارس)، ألقى كلمة بقراءته لصالح الصندوق الأدبي لقصة «مياه توت الأرض». في أبريل، انتُخِب نائباً عن الصندوق الأدبي في مهرجانات بوشكين فيما يتعلق بالافتتاح المُرتقب للنصب التذكاري للشاعر في موسكو. في مايو، تلقّى نبأ وفاة فلوبير. في السادس من يونيو، أُزيح الستار عن النصب التذكاري لبوشكين في موسكو. وقرأ تورغينيف في إحدى أمسيات جمعية مُحبي الأدب الروسي قصيدة بوشكين «العودة إلى الوطن مجدداً». وفي السابع من يونيو، قرأ في اجتماع جمعية محبي الأدب الروسي «خطاباً عن بوشكين». في الثامن من يونيو، حضر الأمسية العامة الثانية لجمعية مُحبّي الأدب الروسي، حيث ألقى دوستويفسكي وإي. أكساكوف خطابات عن بوشكين.

* في عام 1881 زار للمرة الأخيرة ضيعة سباسكويه في شهر يونيو. وفي صيف العام نفسه، قام كل من غريغوروفيتش، بولونسكي، سافينا وليف تولستوي بزيارته هناك في أوقات مختلفة. في التاسع والعشرين من أغسطس، سافر إلى الخارج. في سبتمبر، أجرى لقاءات مع سالتيكوف شيدرين في باريس. نُشرت في هذا العام في العدد الحادي عشر من «بشير أوروبا» قصة تورغينيف «أغنية الحب المُنتصر».

* في مارس عام 1882 بداية مرض تورغينيف الخطير. في ديسمبر، نُشِرت في العدد الثاني عشر من «بشير أوروبا» «قصائد نثر».

* في عام 1883 نُشِرت في العدد الأول من «بشير أوروبا» قصة تورغينيف «كلارا ميليتش». في الثاني عشر من مارس، في رسالة إلى لافروف، أعرب عن رغبته في رؤية جيرمان لوباتين، الذي جاء إلى باريس بعد هروبه من المنفى. في أبريل، تدهور الوضع الصحي لتورغينيف، فنُقِل على إثرها من باريس إلى بوجيفال. في الثاني عشر من مايو، كتب إلى ج. بولونسكايا عن حالته المُزرية. في الخامس من يونيو، أنهى مقال «نارٌ في البحر»، الذي أملاه على بولينا فياردوت. في نهاية يونيو، كتب رسالته الأخير إلى ليف تولستوي، يحثّه فيها على العودة إلى العمل الأدبي. في أغسطس، أملى على بولينا فياردوت قصة «النهاية». في الثالث من سبتمبر، توفي تورغينيف في الساعة الثانية بعد الظهر. وتم تشييع جثمانه في محطة قطار الشمال (بالفرنسية: غار دو نور) في باريس. في التاسع من أكتوبر، جرت مراسم دفنه في مقبرة فولكوف في بطرسبورغ.

المقدمة

دوستويفسكي وتورغينيف

1

إن دوستويفسكي وتورغينيف هما؛ العِداء، المُشاحنة، والاختلاف الفكري. هذا ما يتبادر إلى الذهن عند نطق هذين الاسمين. وإن هذه العلاقة صحيحة من الناحية التاريخية. فالأول مُثقّف من خارج طبقة النبلاء، ومُمثل الوسط البرجوازي الصغير، والثاني سيدٌ ثري، وصاحب أراضٍ. أولهما شائكٌ مثل القنفذ، وعصبيّ، وصاحب مصيرٍ مشوهٍ في الحياة، وذا اهتمام أزلي بالأرباح، ومُثقلٌ بالعمل المُستعجل للمجلات. بينما الآخر ـ تورغينيف ـ مالك أرض كبير، كان يُمضي حياته بيُسرٍ وهدوء وبمتعته الخاصة في المركز الثقافي الأوروبي. وفي السنوات التي تراجعت فيها المُراسلات المنشورة، كان تورغينيف، بوصفه «بورجوازياً مُتكاسلاً من مدينة بادن»، يخشى العمل المُتواصل والمُكثّف للغاية الذي يقوم به دوستويفسكي المُنعزل في المجلة، والذي كان يسعى بسرعة على أمل تقوية «عصره» بعد وفاة شقيقه، وبالتالي يُعيل نفسه. كان دوستويفسكي ينظر إلى تورغينيف على أنّه نموذجٌ مُختلفٌ تماماً عنه من الناحية الاجتماعية. «أنّ الكُتاب أرستقراطيون، الكُتاب أصحابُ أملاك. وأنّ ليف

تولستوي وتورغينيف أصحاب أملاك. هذا ما نقرأه في دفتر مذكراته لعام 1876». وعندما كان يُقارن نفسه مع تورغينيف، كان دوستويفسكي كثيراً ما يُشير خصوصاً إلى الاختلاف بين كيانه الاجتماعي وبين تورغينيف. وفي رسائله إلى شقيقه، ميخائيل ميخائيلوفيتش، كان يُبدي رأيه مراراً وتكراراً بهذا المعنى: «أعلم جيداً، ـ كتب دوستويفسكي في مايو عام 1859 ـ أنني أكتبُ أسوأ من تورغينيف، ولكن ليس أسوأ بكثير، وأخيراً، آمل أن أكتبَ ليس أسوء منه تماماً. ولماذا أنا، ومع كل احتياجاتي، لا آخذ سوى 100 روبل، أما تورغينيف، الذي لديه 2000 نفس من الرقّ، يأخذ 400 روبل. بسبب الفقر، أجدني مُضطراً للتَعَجّل والكتابة من أجل المال، وبالتالي، تسوء حالتي بالتأكيد». بعد مرور عشر سنوات، في أكتوبر من عام 1869، كرّر دوستويفسكي نفس المفكرة لمايكوف: «وبعد ذلك، يُطالبونني بأناقة الشعر الفنية، بلا توتر، وبلا حَميّة ويُلفِتون الأنظار إلى تورغينيف وغونتشاروف. لينظروا إلى الوضع الذي أعمل فيه». كلّ هذا يُبيّن بشكل مُقنع تماماً الوضع الأساس الاجتماعي للعِداء والصراع الذي كان يدور بين كلا الكاتبين.

وكانا، عندما يتعارضان ويتجادلان بشأن المسائل الفكرية، ينالان من بعضهما البعض بشكلٍ لا إرادي. فلم يكونا ينالان من بعضهما البعض بتعدّد الآراء الفكرية فحسب، بل بالاختلاف الحادّ لتوجهاتهما الثقافية أيضاً. لأن الثقافة ليست مجرد فكرة، وأنّما جُملة كاملة من الغرائز المُكتسبة، والعادات، والأذواق الجمالية والأخلاقية والأعراف، وأساليب التفكير، والسلوك والتعامل مع الأشياء والحقائق. وبما أنّ ظروف حياتيهما المادية كانت مخُتلفة، فأنّ شخصيتيهما تبدوان مختلفتين. وهذا هو السبب

في أنّ دوستويفسكي كان يستاء من طريقة «العناق الرباني» لتورغينيف، أما تورغينيف، الذي كان ينال من دوستويفسكي بطريقته الحادة في آراءه واختلاف وجهات نظره، فكان يلزم الصمت بكبرياء، ويتسبب بعِداء الكاتب العادي «بغطرسته»، أو ببساطة بكبريائه.

إنّ الخلاف بين تورغينيف ودوستويفسكي، وعِدائهما، هو خلافٌ بين مجموعتين اجتماعيتين مُعاديتين لبعضهما البعض. وكلاهما مُمثلٌ لعقائد غير قابل للحسم والتوفيق؛ فأحدهما برجوازي عادي فقير، ومُهان، فيما الآخر فهو نبيلٌ مُتميّز، وسيدٌ مُتكبّر.

2

إنّ الخصمين، في حقيقة الأمر، تورغينيف ودوستويفسكي، لم يكونا يُدركان دائماً أنّهما خصمان. وأنّ رسائل كليهما المنشورة للأعوام 1860ـ 1865 هي مراسلات وديّة. فقد كان الكاتبان يتبادلان الرسائل قبل اندلاع وظهور عِدائهما للعلن. وتتضمن رسائلهما تأكيدات على صداقتهما ورغبات مُتبادلة للحفاظ على علاقتهما الوديّة. وهذا كان حتى عام 1867. ففي وقت لاحق، سيقطعان علاقتهما مع بعضهما البعض ويفترقان بشكلٍ حاسم.

لقد وقع الصَدام الأول بينهما، بداية صراعهما المُتواصل، في عام 1867. حيث قرأ حينها دوستويفسكي رواية «الدخان» التي ظهرت في الكتاب الثالث لمجلة «البشير الروسي» (روُسكي فيستنيك). وفي تلك اللحظة، كان تورغينيف يعيش في مدينة بادن، وعندما جاءَ إلى تورغينيف، تشاجر معه بسبب الرواية.

وفي رسالته الشهيرة إلى أ. ن. مايكوف في الثامن والعشرين من أغسطس) 1867، أخبر دوستويفسكي صديقه بتأثرٍ عن النقاط الرئيسة لخلافه مع تورغينيف وهي: الولع بالألمان وثقافتهم ونمط حياتهم، والبُغض للروس والإلحاد.

كان دوستويفسكي يعترف بصدق أنّ الشيء الرئيس، وهو أنّ كتاب «الدخان» قد أغاضه بفكرته الأساسية، والتي «أخبرني هو بنفسه [تورغينيف] أنّ الفكرة الأساسية، والنقطة الرئيسة في كتابه تكمن في عبارة: إذا فشلت روسيا، فلن تكون ثمّة خسارة، ولا اضطراب في البشرية». وقد أخبرني أنّ هذه هي عقيدته الرئيسة بشأن روسيا».

والأهم من ذلك، أنّ دوستويفسكي يقول في هذه الرسالة بنبرةٍ خاصة، إنّ تورغينيف «قد أهانه بشدّة بعقائده»، وإنّه «لم يكن يُحبّ هذا الرجل سابقاً بشكلٍ شخصيّ».

3

لذا، فإنّهما مُختلفان فكرياً من ناحية توجّه كل منهما، وهما يُعارضان بعضهما البعض بعداء. وإنّ الخلاف الشخصيّ بين الكاتبين هو خلاف بين مجموعتين اجتماعيتين. إنّ الشجار في مدينة بادن، وفقاً لحديث دوستويفسكي، سرعان ما انزلق من المستوى الفكري واتجه نحو اللوم الشخصي، ومُلاحظات دوستويفسكي اللاذعة الذي استقرّ خارج البلاد بصورةٍ نهائية.

ومع ذلك، فإنّ هذا كله لم يُزعزع إطلاقاً الموقف القائل إنّ السبب الرئيس في عِدائهما الشخصي وصراعهما الأدبي يكمن في المُستوى

الاجتماعي. وإنّ تقييم دوستويفسكي الدقيق والودود لرواية تورغينيف «الأشباح» في رسالته في الثالث والعشرين من ديسمبر من عام 1863 لا يتنافى مع ذلك أبداً. وإنّ تقريظ دوستويفسكي، الذي حيّا به تورغينيف على محاولته إعداد حبكة خيالية في الرواية، كان واضحاً على خلفية الحياة الفكرية في الستينيات. لقد كانت رواية «الأشباح» في نظر دوستويفسكي نزوة جريئة من تورغينيف ضد «النفعية المحدودة» في الستينيات. وكان تورغينيف بالنسبة له حليفاً مؤقتاً في صراعه مع «الكويكرز[1]»، ومع الأدب اللاذع والصحافة آنذاك، حيث خاض بنفسه صراعاً عنيداً وطويلاً معهم. وقد كان دوستويفسكي على اطلاعٍ تام بالقيمة الحقيقية لهذه الرواية التي كان نصفها خيالياً ونصفها الآخر واقعياً، لكنه كان يقصد بلا شكّ استخدامها كورقة رابحة، وكهجمة ضد النفعيين. لقد كان الاثنان متقاربين في موقفهما العدائي السلبي تجاه الفاضحين الراديكاليين (النفعيين وفقاً لدوستويفسكي، واليافعيين وفقاً لتورغينيف في رواية «الأشباح»). وكان الاختلاف الوحيد بينهما في درجة النفور من بعضهما البعض. فقد كان دوستويفسكي مُمتعضاً ويخوض صراعاً شرساً طويلاً مع سالتيكوف، وبيساريف، وتشيرنيشيفسكي، ولم يكن سوى تورغينيف يسخر من اليافعيين في رواية «الأشباح». وبعد ثلاثة أشهر من رسالتها المُرسلة إلى تورغينيف، أخبر شقيقه عن رؤيته الحقيقية تجاه رواية «الأشباح»: «ثمّة الكثير من الأشياء السيئة فيها، شيء ما دنيءٌ، ومريضٌ، وشيخوخيٌّ، غير

(1) الكويكرز: وتسمى جمعية الأصدقاء الدينية أو الصاحبيون أو الكويكرز، والتسمية الأكثر شيوعاً هي الكويكرز. وهي حركة بروتستانتية مسيحية ظهرت في منتصف القرن السابع عشر في إنجلترا وويلز على يد عالم الإلهيّات جورج فوكس. (المترجم).

مؤمن بسبب الوهن، وبكلمة واحدة، تورغينيف بأكمله مع مُعتقداته»... كُتِب ذلك قبل ثلاث سنوات من الصدام الذي حدث بينهما في مدينة بادن.

وعليه، ففي سنوات تبادل الرسائل الودّية، كان هناك عدم رضىً حتمي عن أعمال تورغينيف، ناشئ عن الاختلاف في العقيدة بالنسبة لدوستويفسكي. وفي وقتٍ لاحق، أصبح الكثير في تورغينيف وإبداعهِ غير مقبول بوضوح لدوستويفسكي، ومُهيناً له. كما أصبح تورغينيف وإبداعه رمزاً لشيءٍ ما مهجور، وهو ما يجب تذليله: «كما تعلمون، فأنّ هذا كله أدبٌ إقطاعي. وقد قال كل ما كان عليه قوله (أنّه أمرٌ رائعٌ لدى ليف تولستوي). ولكن كلمة الإقطاعي هذه كانت الأخيرة إلى حدٍ كبير. ولم تكن ثمّة كلمة جديدة بعد لتحل محل كلمة الإقطاعي، ولا في يومٍ من الأيام. ولكن آل ريشيوتنيكوف لم يقولوا شيئاً. بيد أنّه على الرغم من ذلك، كانوا آل ريشيوتنيكوف يُعبّرون عن فكرة الحاجة إلى شيء جديد ما، جديد في الكلمة الفنية، وليست كلمة إقطاعية، على الرغم من أنّهم كانوا يُعبّرون عنها بشكلٍ قبيح. لذلك، كتب في عام 1871، ضمن ما كتبه في مُحاكاة هجائية حادة في رواية «الشياطين»، أُهجُوّة على تورغينيف و«أبطال تورغينيف في سن الشيخوخة». إنّ رواية «الشياطين» هي تحدٍّ وردّ على تورغينيف كارامزينوف، وعلى أكثر الكُتّاب الذي استنزف مقدرته الأدبية من بين جميع الكُتاب الروس الذين استنزفوا مقدرتهم الادبية» (دوستويفسكي).

إن فجوة دوستويفسكي مع تورغينيف والصراع معه ليست مُصادفة، وليست نزوة مزاجية، وإنما ظاهرة مشروطة اجتماعياً، وبالتالي لا مناص منها.

ن. ف. بيليشكوف

عن مُراسلات دوستويفسكي وتورغينيف

1

لا تكمن قيمة تُراث الرسائل للكُتّاب إلا فيما يكشفه لنا عالمهم الداخلي برمته؛ وأنّ مُراسلاتهم مليئة بالحقائق المُثيرة للاهتمام التي لا غنى عنها تماماً في بعض الأحيان من أجل سيَر حياتهم، ورسم شخصياتهم وعمليات إبداعهم، وتوصيف حياتهم اليومية والبيئة التي أثرت على أعمالهم، ومن أجل توضيح تاريخ تكوين نتاجاتهم، وأخيراً، فهمُ عصرهم وعلاقاتهم المُتبادلة مع مُعاصريهم. وفي كثير من الأحيان، نتيجةً للتعرف على الإصدار الشامل والمُفسَّر بالتعليقات لمراسلات الكاتب، تتولد في مُخيلتنا صورته. ولذلك بالضبط تتمّ دراسة مطبوعات الرسائل من قِبل الباحثين، بوصفها «كنزاً أدبياً ذا قيمةٍ كبيرة ومادة موثوقة من السيرة الذاتية، والتاريخية الأدبية والتاريخية من الدرجة الأولى، التي لم نشهدها ولم نعرفها قط»، والتي بدون دراستها لا يمكن التفكير في أيّ عمل تاريخي أدبي لهم.

لذا، فأنّ الشعور بالأسف الشديد يتملك الباحث عندما لا يصل الجزء الأكبر من مُراسلات الكاتب إليه في وقته الحاضر. وبالنسبة للنصف الأول من القرن التاسع عشر، الذي تمّ تقديمه بشكل غير حصري في علمنا

التاريخي الأدبي عبر مواد الرسائل (بصرف النظر عن المطبوعات الغنية في أرشيف أوستافيفسكي لأمراء آل فيازيمسكي، المُخصصة لمجموعة محدودة من المُتخصصين)؛ فإن مُراسلات بوشكين تُمثل استثناءً موفقاً، فقد وصلت إلينا حتى عصرنا الحالي 800 رسالة من رسائل الشاعر. وفي المُقابل، فقد بقيت لنا من ليرمونتوف حوالي 40 رسالة، ومن ديلفيغ حوالي 80 رسالة، ومن غريبويدوف حوالي 120 رسالة.

لقد أصبح الأمر أكثر نجاحاً مع مطبوعات تُراث الرسائل لكُتّاب النصف الثاني من القرن المُنصرم. وأنّ رسائل ف. م. دوستويفسكي، في حجمها الكبير، والتي كانت غنيّة بمُحتواها الثري وتحتوي على عدد لا يُحصى من الحقائق المُباشرة لفهم عصر وشخصية المؤلف؛ قد بقيت محفوظة بمقدار 800 ونيّف، والتي نُشِر منها ما يقارب 600 رسالة، وأنّ هذا المقدار أقل بكثير مما وصل إلينا حتى عصرنا هذا من رسائل أ. ب. تشيخوف (ما يزيد عن 200 رسالة، وقد تمّ نشرها). ولكن من ناحية أخرى، بالنسبة لتورغينيف الذي قضى سنوات عديدة في خارج البلاد، ولذلك كان كثيراً ما يلجأ إلى المُراسلات، فقد عدَّ الخُبراء الببيلوغرافيون أن عدد رسائله المطبوعة يبلغ حوالي 4500 رسالة!

2

أنّ مُراسلات إي. س. تورغينيف لا تحتل مكانةً قليلة بين مواد الإرث الرسائلي لدوستويفسكي. ولكن قبل الشروع في وصفها، دعونا نتذكر بإيجاز الأدبيّات التي تولدت من هذا العِداء الشخصي المُثير بين هذين الكاتبين.

لقد كانت مسألة العلاقة الشخصية المُتبادلة بين دوستويفسكي وتورغينيف محط اهتمام كُتّاب السيرة الذاتية لفترةٍ طويلة. ففي عام 1883 ـ مباشرة بعد وفاة تورغينيف، الذي عاشَ بعد وفاة دوستويفسكي لمدة عامين ونصف ـ ظهرت مُذكرات يفغيني غارشين، التي ورد فيها عدد من الحقائق عن العلاقة المُتبادلة بين كلا الكاتبين. وسرعان ما أثارت هذه الذكريات مقالة أورست ميلر «بضع كلمات عن العلاقة المُتبادلة بين دوستويفسكي وتورغينيف». وقد دحض هذا المقال العديد من استنتاجات يفغيني غارشين. وأنّ «السجل الأرشيفي» في «الأرشيف الروسي» كان يجب أن يكون توضيحاً لتلك المُذكرات، والذي ورد في تاريخ إرسال نسخة مُقتطفة من رسالة دوستويفسكي الشهيرة إلى مكتبة تشيرتكوف في موسكو، كانت مُكرسة لاصطدامه مع تورغينيف في عام 1867 في مدينة بادن، والتي نَشَرَها في عام 1902 السيد ب. إي. بارتينيف. وقد كرّس الباحثون في المُذكرات اللاحقة العديد من الصفحات لهذه المسألة، وهُم: إي. يا. بافلوفسكي، إي. إي. إيفانوف، ن. م. غوتيار. وهذه ليست مقالات كبيرة. بل مجموعة كبيرة من المقالات الصغيرة بهذا الموضوع كانت تغمر الصحافة الروسية والأجنبية من سنة إلى أخرى، حتى أنّه قد عُثِرَ على مُحاولة للتوصيف الموازي لكلا المؤلفين في الصحف التشيكية!

وفي عام 1920، خصص الراحل يو. أ. نيكولسكي كُتيباً مُنفصلاً عن هذا الموضوع. وعلى الرغم من الإتقان الحقيقي الذي لا شك فيه لهذا العمل، إلا أنّه كان يحتوي على عدد من أوجه القصور الهامة. أولاً وقبل كل شيء، فأنّ الهيكل الأيديولوجي لعمل نيكولسكي لم يكُن مُقنعاً تماماً. وبالاستناد إلى نظريته عن مصادر عِداء هذين الكاتبين التي ارتكز بها أساساً على

علم النفس الشخصي لكل منهما، فقد فسَّر نيكولسكي «كل شي عَرَضي تجريبي في قصة عِداء تورغينيف ودوستويفسكي على أنّه مظهراً أزلياً لابدَّ منه للأنا العدائية لبعضهما البعض». وأنّ التناقضات الناشئة عن تَناحُرهما الطبقي، قد بقيّت غير لافتة للنظر من قِبل نيكولسكي.

إنّ أحد العيوب الشائعة لكل هذه الأعمال هو أنّ مُراسلات دوستويفسكي وتورغينيف قد ظلت مجهولة لمؤلفيها.

3

لقد أدركَ رسائلَ دوستويفسكي إلى تورغينيف المصيرُ الغريب. ولم تكن رسائل دوستويفسكي مُتاحةً لأي من الباحثين العديدين في تاريخ العلاقة المُتبادلة بين هذين الكاتبين، على الرغم من أنّهم كان لديهم حدس بوجودها. وكانت النُسخ الأصلية لهذه الرسائل موجودة في الأرشيف الباريسي لتورغينيف، المملوك لوريثته بولين فياردوت. ولم يتمّ الحصول على هذه الرسائل من هناك إلا في عام 1920 من قِبل أندريه مازون، الباحث الشهير في إبداع غونتشاروف. وفي العام التالي، أي عام 1921، نُشِرت في كُتيّب شهر يناير من «مجلة الدراسات السلافية» الباريسية. وكان الحصار والغياب التام للتواصل مع الدول الأجنبية سبباً في أنّ ظهور هذه الرسائل في الصحافة ظلّ لفترةٍ طويلة مجهولاً في العلوم التاريخية الأدبية الروسية. وليست ثمّة إشارات إليها لا في أدبيات الذكرى السنوية لدوستويفسكي في عام 1921 (في الثلاثين من شهر أكتوبر تم الاحتفال بالذكرى السنوية لميلاده، وفي الثامن والعشرين من يناير بالذكرى الأربعين لوفاته)، ولا في كتاب يو. أ. نيكولسكي المذكور أعلاه، والذي صدر في نفس العام، ولا

في «ببليوغرافيا رسائل ف. م. دوستويفسكي»، المنشورة في المُنتخبات المُختارة للذكرى السنوية في أوديسا «مؤلفات دوستويفسكي» بتحرير ل. ب. غروسّمان، ولا في الإضافات المُلحقة بهذه الببليوغرافيا لعام 1923. وحتى في نهاية عام 1923، فمن الواضح أنّ مُحرر كتاب «من أرشيف دوستويفسكي» لم يكن يعلم بوجود هذه الرسائل في الصحف. لذا، في مقدمة رسائل تورغينيف الـ16 المطبوعة هنا، فأنّنا نقرأ: «... فيما يتعلق برسائل دوستويفسكي إلى تورغينيف، لم تُنشر حتى الآن أية رسالة منها... ولم تظهر أي من رسائل دوستويفسكي إلى تورغينيف في الصحف...».

لأوّل مرة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، تمّت إعادة نشر هذه الحزمة من رسائل دوستويفسكي بالكامل في عام 1924 من قِبلنا. وفي الوقت نفسه، في ذات عام 1924، أعددنا جميع مُراسلات دوستويفسكي وتورغينيف للنشر، ولم يتم نشر هذه المجموعة التي كان من المفترض أن يتمّ إصدارها في ذات العام، ولظروف خارجة عن إرادتنا حينها.

نُشِرت رسائل تورغينيف الجوابية بشكل جزئيّ بعد وفاته في «المجموعة الأولى لرسائل إي. س. تورغينيف» الشهيرة. وطُبِعت ثماني رسائل لإيفان سيرغييفيتش هنا، والتي تمّ تفسير تاريخ ظهورها في الصحافة بالتعليق التالي الذي كتبه أ. غ. دوستويفسكي: «بناءً على نصيحة ك. ب. بوبيدونوستسيف، لم يكن ينبغي علي أن أُعطي الرسائل الموجودة لدي لأي أحدٍ ليطلع عليها، بل ولا حتى إهداؤها. وأنّ الاستثناء الوحيد الذي تمّ القيام به بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات هو: عندما بدأوا، بعد وفاة تورغينيف، بنشر المجموعة الأولى من رسائله، توسل إليّ ف. ب. غايفسكي، رئيس المحفوظات الأدبية (ليتيراتورني فوند)، بعد أن علِم

أن لديّ رسائل تورغينيف إلى زوجي، أن أسمح له بإعادة كتابتها. فأعطيته خمسة رسائل، هي التي ظهرت في الكتاب الذي نشره[1].

لقد تمّ العثور على أوتوغرافات لجميع الرسائل الجوابية التي كتبها تورغينيف، والتي بقيت حتى يومنا هذا في عُلبة مفتوحة في نوفمبر عام 1921 في أرشيف موسكو المركزي مع أوراق ف. م. دوستويفسكي. وعُثِر هنا على كيس صغير، حيث كانت آنّا غريغورييفنا تضع فيه رسائل الكُتّاب الروس إلى فيودور دوستويفسكي في أظرف مُنفصلة. وكان الظرف المُنفصل في ذلك الكيس يحتوي على 15 رسالة من إي. س. تورغينيف، والتي كانت 7 رسائل منها لم ترَ النور قطّ. (ظهرت لأول مرة في كتاب «من أرشيف دوستويفسكي»). وبالإضافة إلى ذلك، فقد عُثِر في ذات العُلبة بين أوراق آنّا غريغورييفنا نفسها على إحدى رسائل دوستويفسكي القيّمة وعليها وصل استلام له من تورغينيف، وهي التي بقيت مجهولة أيضاً في الصحافة حتى ذلك الحين.

وأخيراً، من جزء من أرشيف آنا دوستويفسكايا، الموجود حالياً في بيت بوشكين التابع لأكاديمية العلوم في روسيا، حصلنا على وصل استلام من تورغينيف، لا يزال مجهولاً في الصحافة، وهو يعود لعلاقته المُتبادلة مع دوستويفسكي.

---

(1) الاقتباس من المسودة المحفوظة في أوراق آنا غريغورييفنا دوستويفسكايا (زوجة دوستويفسكي الثانية)، وحالياً في الأرشيف المركزي، والمؤرخة في الأول من مارس عام 1891. وبالمناسبة، فإن هذا الجزء في النصّ الرئيس لم يدخل في «مذكّراتها» الشهيرة.

بإصدارنا هذا، فأنّنا نُكمل نشر مراسلات دوستويفسكي وتورغينيف، والتي دامت 40 عاماً ونيّفاً، وهو إصدار ما بقي محفوظاً حتى يومنا هذا.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنّ جميع مراسلاتهما لم تصل إلينا حتى أيامنا هذه. ومما لا شك فيه أنّ الجزء الأكبر قد سَلِم، ولكن البعض منها إما قد ضاع إلى الأبد أو لم يُعثر عليه حتى الآن. وهذا واضحٌ من التوزيع غير المُتكافئ للرسائل على مرّ السنين، والأهم من ذلك أنّ بعض الرسائل التي قمنا بنشرها كانت جوابية، والتي يُشار فيها إلى تواريخ (تقريبية في بعض الأحيان) هذه الرسائل التي لم يُحتفظ بها. لذلك، لا ريب في آنّه في نفس السنوات كانت هناك عدة رسائل لدوستويفسكي، واحدة منها بتاريخ منتصف أكتوبر عام 1861، والثانية بتاريخ منتصف ديسمبر من العام نفسه، والثالثة بتاريخ يناير 1862، والرابعة تحتوي تقريظاً على رواية «الآباء والبنون». من بداية شهر مارس من نفس العام، والخامسة بتاريخ 24 أغسطس 1864.

ينبغي علينا للأسف أن نؤكد إلى أنّ آثار مراسلاتهما خلال الفترة الأولى من تعارفهما لم تصل إلينا، أي بدءاً من منتصف الأربعينيات ولغاية عام 1849، وهو عام نفي دوستويفسكي إلى سيبيريا. وجديرٌ بالذكر آنهما في الأشهر الأولى من تعارفهما، كانت لديهما صداقة كبيرة. «في ذلك اليوم عاد الشاعر تورغينيف من باريس»، (إنك حقاً سمعت بذلك)، كتبَ دوستويفسكي إلى شقيقه في السادس عشر من نوفمبر 1845، «ومن أول مرةٍ ارتبط بي بهذه الصداقة لدرجة أنّ بيلينسكي قد فسرها على أنّ

تورغينيف قد أُغرِم بي. يا أخي، يا له من رجل! وأنا أيضاً كدت أُغرم به. أنه شاعرٌ، وموهوب، وأرستقراطي، رجلٌ وسيم، وغنيٌ، وذكي، ومُتعلم، يبلغ من العمر 25 عاماً، لا أعلم مِن ماذا حرمته الطبيعة. وفضلاً عن ذلك: إن شخصيته صريحة بشكلٍ لا ينضب، وأنه جميلٌ، وقد تربى في مدرسة جيدة...». لكن الفارق الطبقي؛ «ابن طبيب من نُبلاء فُقراء» و«وشاعرٌ وسيمٌ، وسيدٌ بكل معنى الكلمة»؛ أبطل علاقتهما بسرعة. وأنّ دوستويفسكي الذي كان يتميز في تلك السنوات بالغرور غير الطبيعي والتعجرف الشاب، قد جرَّ على نفسه قصيدة تورغينيف الساخرة الشهيرة (التي كتبها مع نيكراسوف) «فارسٌ ذو شخصية يُرثى لها».

وخلال الفترة الأولى من تعارفهما، غادر تورغينيف بطرسبورغ مرتين؛ في صيف عام 1846 حين كان يسْتجمّ في مُقاطعة سباسكي، وفي فبراير عام 1847حين رحل إلى خارج البلاد، حيث لم يعُد من هناك حتى خريف عام 1850، عندما كان دوستويفسكي آنذاك في سجن أومسك لمدة عام. ومن المُحتمل للغاية أنه كانت ثمّة مُراسلات بينهما خلال تلك الفترات.

5

ومع ذلك، فإن مُراسلات دوستويفسكي وتورغينيف التي وصلت إلينا ستلعب دوراً كبيراً في توضيح مسألة علاقتهما المُتبادلة؛ وأنّ قيمتها قد ازدادت من خلال أنّها لم تدخل في التداول العلمي، ولم تُستخدم من قِبل أيٍّ من الباحثين، باستثناء بعض رسائل تورغينيف. وصحيحٌ أنّ المُراسلات التي تمّ جمعها هنا لا توضّح علاقتهما المُتبادلة بشكلٍ تام، إلا

أنّ ذلك يرجع إلى حقيقة أنهما لم يَكُونا يتراسلان على نحوٍ مُستمر، وأنما في مناسبات مُنقطعة.

وبالإضافة إلى ذلك، فأنّ هذه الرسائل توفر مادة ذات أهمية لسيرة حياة دوستويفسكي ولتاريخ مجلاته «فريميا» وتعني بالروسية (الزمان) ومجلة «إيبوخا» وتعني بالروسية (العصر)، ناهيك عن تلك الخصائص الموجزة، ولكنها قيّمة في وضوحها، والتي كان دوستويفسكي يُقدم فيها للظواهر الأدبية في النصف الأول من الستينيات حول مواطئ بحوثه في مجال الشكل الفني وما شابه ذلك.

لقد كان دوستويفسكي وتورغينيف حذرَين للغاية في مُراسلاتهما. لذلك، أولينا اهتماماً خاصاً للتعليق التاريخي الأدبي لهذه الحزمة من الرسائل، والتي تستند في معظمها على المواد والوثائق التي لا تزال مجهولة في الصحافة، والتي تحلّ شيفرة العديد من الأشياء غير المُبرهنة من هذه الرسائل. ومن أجل إثراء تعليقاتنا بمحتوى جديد، فقد نظرنا بعناية شديدة في كل عبارة جديدة لدوستويفسكي وتورغينيف أيضاً، والتي كان يصفُ فيها أحدهما الآخر في تلك الحقبة. إن هذا العمل الصغير، الذي يتّسم بالدقة الواضحة فقط للباحثين، قد مكّن في الحقيقة من استعادة الكثير من علاقتهما الحقيقية مع بعضهما البعض على مرّ السنين، والتي تنتمي إليها المُراسلات المنشورة من قِبلنا. وثمّة مُقتطفٌ رائعٌ من مراسلاتهما الودية ـ لم يكن منشوراً في الصحف سابقاً ـ يُضيءُ بنورٍ ساطعٍ نظرة الكاتب الحقيقية بشكل غير مُتوقَّع على هذه الحقيقة أو تلك، وعلى هذا الحدث الأدبي أو ذاك (قارن، على سبيل المثال، تعليقنا على رسالة دوستويفسكي حول رواية «الأشباح»). وأنّ مثل هذه المقالات النقدية التعبيرية أعزّ علينا من المؤلفات المُطولة التي كان

المؤرخون الأدبيون مولعين بها قبل بضع سنوات. وفي هذه المقالات النقدية
الموجزة، لكن المُعبّرة، فأنّ الناس يكونون أكثر صراحة ووضوحاً وبساطة،
ولكنهم في الحقيقة يشعرون بحريةٍ أكبر وأكثر صدقاً. فهي تكشف عن عدد
من التفاصيل المثيرة للاهتمام في تاريخ العلاقة المتبادلة بين دوستويفسكي
وتورغينيف، وبالتالي في كثير من النواحي، فإنّها تُكمل وتُوضّح باطنياً صورة
علاقتهما المُتبادلة.

ومن بين هذه المواد، يجب إيلاء اهتمام خاص للمراسلات غير المنشورة
بين تورغينيف وب. ف. آنينكوف، والتي كنا قد استخدمناها (رسائل
تورغينيف إلى ب. ف. آنينكوف محفوظة في أرشيف موسكو المركزي،
ورسائل آنينكوف الجوابية في قسم أرشيف تورغينيف، الذي أقتناه بيت
بوشكين)، فضلاً عن مراسلات دوستويفسكي المجهولة في الصحف مع
شقيقه م. م. دوستويفسكي (لقد حصلنا على رسائل دوستويفسكي غير
المنشورة من أوراق آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا، المحفوظة في بيت
بوشكين؛ رسائل م. م. دوستويفسكي الجوابية موجودة في «غرفة ف.
م. دوستويفسكي» في متحف موسكو التاريخي). وبالإضافة إلى ذلك،
فقد حصلنا على إضافات جديدة مهمة من مُراسلات تورغينيف وف. ب.
بوتكين غير المنشورة، من قسم أرشيف دوستويفسكي، المحفوظة في
أوراق زوجته، ومن مُراسلات ب. ف. آنينكوف مع ف. ف. كورش وف.
ب. بوتكين، ووثائق مُتفرقة من الملفات غير المنشورة عن دوستويفسكي
في قسم الشرطة والشعبة الثالثة.

إي. س. زيلبيرشتين

مُراسلات دوستويفسكي وتورغينيف

1

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

لقد وصلتُ اليوم من موسكو، وجلبت لكم 600 روبل من أوسنوفسكي[1] ـ وهي موجودة عندي ـ وإنني أطلب منكم أن تُعرّجوا عليّ لتأخذوها، لأنني أُصِبتُ بوعكة صحية لا أقوى معها على الخروج.

أُصافحكم بودٍ وأبقى... المُخلص لكم.

إيفان تورغينيف
الثلاثاء
10 فبراير 1860 [2]
[بطرسبورغ]

---

(1) جَلب تورغينيف 600 روبل من ناشر الكتب في موسكو ن. أ. أوسنوفسكي، الذي كان قد أشترى من دوستويفسكي فور عودته من سيبيريا (في نهاية عام 1859) حقوق نشر مؤلفاته الكاملة المكونة من مجلدين؛ وتشمل: «الفقراء»، «نيتوتشكا نيكفانوفا»، «الليالي البيضاء»، «قرية ستيبانتشيكوفو» وغيرها. إضافة إلى ذلك، وفي نفس العام، نشر أوسنوفسكي المؤلفات الكاملة المكونة من أربعة مجلدات لتورغينيف، والتي تضمنت «مذكرات صياد»، «رودن»، «عش النبلاء»، «في العشية».

(2) قد يجد القارئ أن الرسالة مؤرخة بتاريخ خاطئ من قبل تورغينيف، إذ يُصادف يوم الثلاثاء آنذاك 9 فبراير عام 1860.

2

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

أوصيكم بحامل هذه الرسالة، السيد فينيتسكي[2]، مؤلف القصص القصيرة المنشورة في مجلة «مكتبة لأجل القراءة»، «الحرب والأسْر». أنه لا يزال شاباً يافعاً ـ كما سترونه ـ ويودّ أن يعمل. ولديه شيءٌ ما قد بدأه. وأنّني على يقين من أنّكم ستستقبلونه بحفاوةٍ ولطفٍ وستبسطون له يد العون التي يحتاجها في البداية.

ليُباركِكم الرب، وإلى اللقاء.

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

الأربعاء، 6 سبتمبر، 1861.

[بطرسبورغ]

---

(1) كُتِبَت هذه الرسالة إلى دوستويفسكي في فترة توليه تحرير مجلة «الزمان».

(2) فينيتسكي هو كاتب غير ناجح في الستينيات. وفي كتاب «تفسير الأحلام في الأدب الروسي المُعاصر» الساخر للشاعر ن. ف. شيربينا، تمّ التعبير عن سمة تورغينيف المعروفة للجميع، واعتنائه بالكُتّاب الشباب، الذين غالباً ما يكونون غير موهوبين: «إنّ رؤية تورغينيف في الحلم يُبشر بالحصول على قدرةٍ خفية على اكتشاف المواهب حيث لا توجد إطلاقاً».

3

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

باريس

16 / 28 أكتوبر، 1861[2]

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

اسمحوا لي أن أطلب منكم أن ترسلوا إلي ـ إن أمكن ـ وعلى حسابي بالطبع، نسخاً من مجلتكم، بدءاً من شهر سبتمبر، إلى هنا، على العنوان الآتي: شارع دي ريفولي، 210. (وأطلب منكم أن يكون ذلك بشكل مستقل عن النسخ التي أرسلتموها إلي في القرية).

وأنكم بهذا، ستُسدون إلي بمعروف كبير.

---

(1) كُتِبَت هذه الرسالة إلى دوستويفسكي في فترة توليه تحرير مجلة «الزمان».

(2) علينا القول إن هناك مواضع كثيرة في الكتاب يحدث فيها مثل هذا التأريخ المزدوج، والسبب هو أن الكنيسة الغربية كانت تعتمد التقويم الغريغوري بينما بقيت الكنيسة الشرقية ـ ولوقت أطول ـ تعتمد التقويم اليولياني، وإن الفرق بينهما متغير (في حدود 12 يوماً). وهذا ما جعل الكاتبين يؤرخان رسائلهما بحكم محل إقامة كلّ منهما. وجدير بالذكر أن هذا الفرق كان بيّناً في زمن حدوث الثورة البلشفية المعروفة بثورة الخامس والعشرين من أكتوبر وفق التقويم اليولياني، والتي كان تاريخ قيامها الفعلي هو السابع من نوفمبر. وفق التقويم الغريغوري. (المترجم).

وأخبروني أيضاً عن صحتكم وعما يفعله أصدقاؤنا... أنني أعيشُ هنا شيئاً فشيئاً، وبالطبع، كثيراً ما أفكر في بطرسبورغ.

لقد شرعتُ بالعمل قبل أيام على الرواية[1] التي يجب أن تُنشر عندك، وإن لم يُنشر أيُّ شيء، فأنني آمل أن أُكمِلها بحلول العام الجديد. ولكن قد تكون هناك عراقيل داخلية وخارجية. فلنأمل أن يسير كل شيء على ما يُرام.

أشدّ على يديكم بودٍ، وأبقى...

المُخلص لكم،

إيفان تورغينيف.

(1) يدور الحديث هنا عن الرواية التي وعد تورغينيف دوستويفسكي بنشرها في مجلة «الزمان». وهي رواية «الأشباح». وكان تورغينيف قد كتب هذا العمل منذ خريف عام 1855 لنشره في مجلة «البشير الروسي» (روُسكي فيستنيك) لكاتكوف. وبعد شجاره مع كاتكوف، والذي كان سببه هذا العمل، وعد تورغينيف دوستويفسكي بنشر رواية «الاشباح» في مجلته «الزمان». ولكن، لم يتمّ الانتهاء من كتابة «الاشباح» سوى في صيف عام 1863 (استغرقت كتابتها مدة 9 سنوات تقريباً)، ولم تظهر في الصحافة إلا في عام 1864 في الكتاب الأول لمجلة دوستويفسكي الأخرى «إيبوخا» (العصر).

4

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

باريس

30 أكتوبر / 11 نوفمبر، 1861

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

أولاً وقبل كل شيء، أرجو المعذرة لأنني أردّ على رسالتكم الطويلة[1] في مثل هذه القُصاصة، فليس ثمّة من وقت إطلاقاً، على الرغم من أنني لا أفعل شيئاً يستحق الذكر. أولاً، شكراً على الرسالة وعلى الوعد بإرسال مجلة «الزمان» التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر. ثانياً، ينبغي أن أُخبِركم أنّ الرواية، ولأسباب داخلية وخارجية، لن تظهر قريباً في مجلة «البشير الروسي»، على الأقل ليس قبل عودتي إلى روسيا، ربيعاً، أو ربما لن تظهر على الإطلاق. والأخير هو الأكثر احتمالاً. لقد انتابني من مجلة «المعاصر» (سوفريمينيك) شعور بالاشمئزاز من أنها تكذب عمداً[2].

(1) رسالة دوستويفسكي كانت مجهولة في الصحافة.

(2) يدور الحديث هنا عن رواية «الآباء والبنون». ويعارض تورغينيف هنا تفسير أسباب انفصاله عن مجلة «المعاصر» الذي تمّ عرضها على صفحات المجلة. في حين أكدت مجلة «المعاصر» على الأسباب الأيديولوجية للانفصال (الفرق في «طريقة التفكير»)، وقد

ولكن هذه ليست المرة الأولى. ثمّة رسالة لدي من نيكراسوف[1]، كتبها لي في وقت مبكر من هذا العام، قدم إلي فيها عروضاً رائعةً كثيرة، فأجبته بأنّني لن أكون موظفاً في مجلة «المعاصر». ولكن أتضح أنّه يجب أن أخبر الجمهور أنّني طُرِدت. كلّ هذا أمرٌ تافهٌ ولا يستحقّ الاهتمام. وسيبقى هذا الأمر تافهاً، حتى وإن كان دوبرولوبوف قد ضايقني للغاية. ولكن لماذا يعنيني أنا، ولماذا يعني شخصية مُستقلة؟

إن الرواية المُخصّصة لمجلة «الزمان» لم تُحقّق تقدماً في الأيام القليلة الماضية، وثمّة العديد من الأفكار الأخرى (غير الأدبية) تدور في ذهني... ولكن إما أنّني لن أكتب أي شيء، أو سأكتب هذا العمل الأدبيّ لأجلكم، وأنّني أرغب بكتابته.

لقد أسعدَتني رسالتكم كثيراً لأنّ المُراسلين المُعتادين خاصتي من بطرسبورغ كانوا صامتين لعدة أسابيع. من فضلكم، لنستمرّ في إرسال الأخبار لبعضنا البعض. ولكم أن تَطمئنّوا لمُساهمتي الصادقة التي أتشاركها معكم، وفي مجلتكم، وفي كل ما يخصّكم.

ومن المستحيل أن أتحدث عن مضمون قصتي لمجلة «البشير الروسي». ويبدو أنّ الشخصية الرئيسية هي تعبيرٌ عن عصرنا الحديث[2]. وبما أنّه قد ظهر مؤخراً بنفسه على نحو فظيع تماماً، فأنّ الأدب يبقى صامتاً إلى حين.

أولى تورغينيف أهمية حاسمة لحقيقة أنّ مبادرة رفض التعاون في مجلة «المعاصر» تخصّه، ولا تخصّ هيئة التحرير.

(1) يقصد تورغينيف هنا رسالة نيكراسوف التي كتبها له من بطرسبورغ بتاريخ 15 يناير 1861، والتي قدّم له فيها عروضاً رائعة كثيرة. وهذه الرسالة معروفة لدى الصحافة.

(2) المقصود هنا بطل رواية «الآباء والبنون» بازاروف.

أبلغوا عني السلام لبولونسكي ولجميع الأصدقاء الطيبين. وأوصِلوا تحياتي إلى زوجتكم. أتمنى لكم الصحة ودوام التوفيق.

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

ملاحظة: لقد قرأت الآن قصيدة لفيازيمسكي[1] في مجلة «البشير الروسي». ـ يا لها من سفالة! ـ كلا، يبدو أنّه لا يمكن المُساهمة في أيّ مكان باستثناء مجلتكم.

---

(1) تورغينيف يقصد هنا قصيدة الأمير ب. أ. فيازيمسكي «خواطر». وفي هذه القصيدة الرجعية، تمرّد فيازيمسكي ضدّ الحرية التي يُدّعى أنّ الثوريين قد فهموها زوراً، ووصف تشينير بـ«الحر»، وروبيسبير بـ«العبد».

5

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

باريس

26 ديسمبر 1861

7 يناير، 1862

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

لقد فاجأتني رسالتكم كثيراً. يبدو أنكم قد عَلِمتُم بالقراءة من رسالتي أنني نسبتُ إليكم نشر الشائعات عن روايتي[1] ـ وأنّ ذلك لم يخطر ببالي ـ فكيف يمكن لمثل هذا التلميح أن يكون موجوداً في رسالتي؟ وكأنّ ثمّة حاجة للبحث عن تفسير خاص لهذه الإشاعة، فهي سائدة في أدبنا، وخاصة في دُورنا الخفية، حيث يتمّ إصدار «نشرات الكتب».. إلخ. ومع ذلك، فأنّ المسألة برمّتها لا تُشكل أية أهميةٍ. وإنّ أسفي الوحيد هو أنها قد أزعجتكم أنتم وكاتكوف. أخشى أنّ القُراء، أثناء قراءتهم لرواية «الآباء والبنون»، لم يقولوا: مِمَّ كانوا مُجهدين؟ باختصار، كنت أرغب في تأجيل النشر حتى الربيع لأسبابٍ عديدة؛ لكن التاجر يطلب بإصرار البضاعة المُتفق على بيعها مُسبقاً ـ وليس لدي ما أفعله ـ فينبغي نشرُها كما هي.

---

(1) المقصود هنا رواية تورغينيف «الآباء والبنون».

إنّني مُهتمٌ للغاية بمسرحية أوستروفسكي «مينين»[1]؛ أخبِروني عن انطباعكم من فضلكم. إنها محاولةٌ جديدة وجريئة! أسأل الله أن تُكلّل بالنجاح! ولكن حتى لو كان ثمّة من فشل، فإنني مع ذلك واثقٌ من أنّ فشل أوستروفسكي قد يكون أكثر إثارة للاهتمام من نجاح الكثيرين. أبلغوه عني السلام.

إنّ الرواية المُخصصة لمجلة «الزمان» قد حقّقت تقدماً في الفترة الأخيرة، ولدي أملٌ كبير أنّها ستكون جاهزة للعدد الثاني؛ لكنكم تعلمون أنّ هذا العمل عجيب.

إنّني مُمتنّ لكم لإرسالكم العددين من مجلة «الزمان»، اللذين قرأتهما بكلّ سرور. وخصوصاً روايتكم «مذكرات من منزل الأموات». إن صورة الحمّام هي ببساطة صورة من صور دانتي، وثمّة العديد من الحالات النفسية الدقيقة والصحيحة في توصيفاتكم للشخصيات المختلفة (على سبيل المثال، بيتروف). إنني سعيدٌ بنجاح مجلتكم. وأكُرر أنّني مُستعدٌ لإعانتها بشتّى الوسائل. أبلغوا عني السلام لزوجتكم وجميع الأصدقاء.

أُصافحكم بودٍ.

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

---

(1) نُشِرت مسرحية أ. ن. أوستروفسكي التاريخية الدرامية «كوزما زاخاريتش مينين سوخوروك» في المجلد 91 لمجلة المعاصر (شهر يناير عام 1862) وتتضمن هذه الفترة لقاءات متكررة لدوستويفسكي مع أوستروفسكي.

6

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

باريس

2 / 14 مارس 1861

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

الله وحده يعلم منذ متى كان يتوجب علي أنّ أُجيبكم، ولكن كما ترون، فأنني الآن أمسكُ قطعة ورق صغيرة، وثمّة كسلٌ شديد لدي، وليس ثمة ما يمكن قوله تقريباً. ولم يحدث من قبل أن مرت حياتي بهذه السرعة وبلا أثر كما في الشهرين الماضيين. فإنني لم أعمل شيئاً تقريباً، وكنت أقرأ قليلاً، ولم أذهب إلى أي مكان ـ والله وحده يعلم لماذا! إن روايتي[2] تتقدم بصعوبة بالغة ـ لذا من المستبعد أن تكون جاهزة قبل عودتي إلى روسيا في أبريل. قبل أيام قليلة قرأت مسرحية «مينين»، ولكي أقول ما يمليه علي ضميري ـ فأنّها ما زالت باردة. الأبيات الشعرية مُذهلة، واللغة رائعة ـ ولكن أين حيوية وتنوّع وحركة كل شخصية، أين الدراما؛ وأين القصة في النهاية؟ لقد انتظرت شيئاً مُختلفاً تماماً من أوستروفسكي ـ ولم

(1) هذه الرسالة التي كان يتوجب على تورغينيف أن يُجيب عليها منذ فترة طويلة، مجهولة في الصحافة.

(2) المقصود هنا رواية تورغينيف «الأشباح».

أفكر أبداً في أنّه سيوضح كل شخصية في سطرٍ واحد. ثمّة مواضع رائعة ـ وثمّة شيءٌ ما نقي، وروسي، وناعم يهبُ على العمل كله، لكن هذا ليس كافياً... وخصوصاً أنّه ليس كافياً من أوستروفسكي.

إنّني ما زلت أنتظر إرسال العدد الأول من مجلتكم «الزمان». يقولون إنّ الاشتراكات في المجلات سيئة وآمل ألّا يمتد ذلك إلى مجلتكم «الزمان»[1]. لقد توفي المسكين باناييف[2]... وقد حزنت عليه كحزني على صديقٍ قديم. كم كان يبدو بصحةٍ جيدة... وبعدها أُصيب بالأنورسما! فلتَنل روحَه الرحمة.

عندما تستلمون هذه الرسالة، فمن المحتمل أن تكون روايتي[3] في بطرسبورغ. اقرؤوها وقولوا رأيكم فيها بكل صراحة. إنّني أتوقع الفشل لكيلا يُقال أكثر من ذلك، وهذا لا يعني «استباق الاحداث»، بل وعيٌ يقِظٌ إلى حدٍ ما، مبنيٌ على المُعطيات الإيجابية. وأنّني أعلم ما أردته، وقد بدأت أشعر أنّني تولّيت مهمةً فوق طاقتي. ولكن لم يخطر ببالي قط أن أُعلِمَ أي أحدٍ. لم يكن الأمر كذلك.

أما بعد، فأنّني أتمنى لكم كل التوفيق، وأبعثُ تحياتي لزوجتكم، ولجميع الأصدقاء وأُشدّ على يديكم بودٍ.

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

---

(1) بلغ عدد مشتركي مجلة «الزمان» عام 1862، 4302 مشتركاً مُقابل 2300 في عام 1861.

(2) إيفان إيفانوفيتش باناييف هو كاتب روسي وناقد أدبي وصحفي وناشر مجلة، توفّي في بطرسبورغ ليلة 19 فبراير 1862.

(3) الرواية التي يطلب تورغينيف من دوستويفسكي أن يقرأها ويقول رأيه فيها بكل صراحة هي رواية «الآباء والبنون»، التي بدأ نشرها في تلك الفترة في مجلة «البشير الروسي» في عدد شهر فبراير.

7

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

لا حاجة لي أن أُخبرك إلى أي مدى أسعدني تقريظكم لرواية «الآباء والبنون». إنّ المسألة هنا لا تتجلى في إرضاء حب الذات، وإنما إثبات أنّك لم تُخطئ ولم تخفق تماماً، وأنّ العمل لم يذهب هباءً. لقد كان الأمر أكثر أهمية لي من أنّ الأشخاص الذين أثق بهم كثيراً (إنّني لا أتحدث عن كولباسين)، نصحوني بجدية بإلقاء عملي في النار. وقبل أيام قليلة فقط (ولكن ليبقَ هذا الأمر بيننا) كتب لي بيسيمسكي أنّ شخصية بازاروف غير مُوفقة تماماً. فكيف تُريدون ألا يُخامركم الشك وألا تحتارون هنا؟

---

(1) رسالة دوستويفسكي التي قال فيها رأيه عن رواية «الآباء والبنون» مجهولة في الصحافة. وقد يكون هذا الرأي، على حد قول الباحث، «قيّماً لفهم الرواية والعلاقة المُتبادلة بين كلا الكاتبين». ويمكننا الآن فقط التعرف لأول مرة على المضمون العام لتقريظ دوستويفسكي، ولكن، حسبما رواها تورغينيف. في رسالته غير المنشورة إلى ف. ب. بوتكين بتاريخ السابع من أبريل 1862 من باريك، نقرأ: «لقد تلقيت رسائل عديدة بشأن روايتي؛ من بيسيمسكي رسالة نقدية، ومن مايكوف ودوستويفسكي رسالة حماسية يؤكد فيها دوستويفسكي أنّ هذا العمل الفني وحده يُساوي كل ما كتبتُه ويُقارنه برواية «الأنفس الميتة»! وما إلى ذلك، كما وتلقيت من آنينكوف رسالة مُعتدلة؛ وبدا ذلك لي أكثر إنصافاً».

إنّه لمن الصعب على المؤلف أن يشعر فوراً بمدى تجسد فكرته ـ وما إذا كان موثوقاً بها ـ وما إذا كان يُتقنها، وإلى آخره. إنه، مثلما يكون في الغابة، يكون في عمله الفني الخاص.

على الأغلب أنكم قد شعرتم بذلك أكثر من مرةٍ. ولذلك شكراً لكم مرة أخرى. لقد أدركتم تماماً وبمهارةٍ ما أردت أنّ أُعبرَ عنه من خلال بازاروف لدرجة أنّني فتحتُ ذراعي من الدهشة والسرور. وكأنّكم دخلتم في قلبي وحتى أنّكم شعرتم بما لم أعتبره ضرورياً للتعبير عنه. أسأل الله ألا تؤثر في ذلك عاطفة السيد المُرهفة فحسب، بل المعرفة البسيطة للقارئ أيضاً،أي، أسأل الله أن يرى الجميع على الأقل فصلاً مما رأيتموه! أنّني الآن مُطمئنٌ بشأن مصير روايتي: لقد قامت بعلمها، وليس لدي شيء أندم عليه.

إليكم دليلٌ آخر على كيفية تأقلمكم من قبل مع هذا النموذج: في لقاء أركادي مع بازاروف، في الموضع الذي، على حد قولكم، كان ينقصه شيء ما، عندما كان يتحدث بازاروف عن المُبارزة، كان يسخرُ من الفرسان وكان أركادي يستمع إليه برعبٍ مكنون وما إلى ذلك. لقد رميت ذلك، وأنّ ما يؤسفني الآن هو أنّني شطبت وأعدت صياغة الكثير تحت تأثير الآراء غير الإيجابية، وبسبب ذلك، ربما، حدث البطء في العمل، الذي لاحظتموه.

لقد تلقيت رسالة لطيفة من مايكوف ـ وسأُجيبه. وسوف يوبخني بشدة ـ ولكن يجب انتظار ذلك مثل انتظار أمطار الصيف.

سيحزُّ في نفسي كثيراً إن لم أدرككم في بطرسبورغ. سأُغادر في نهاية شهر أبريل هذا المكان، أي في غضون شهر. والآن يُمكنني أن أُخبركم

على الأرجح أنني سأجلب لكم عملي جاهزاً وأنه لم يتقدم كثيراً فحسب، بل اقترب من النهاية. وسيحتوي على ما يُقارب 3 صفحات منشورة. يبدو أنه شيءٌ غريب. وأنّه بالضبط رواية «الاشباح»، التي نشأت بسببها منذ بضع سنوات جدالات مع كاتكوف ـ لا أعلم إنّ كنتم تتذكرون ذلك. كنت على وشك البدء بشيء آخر ـ وفجأة أمسكت بها وعملت عليها لعدة أيام بحماس. وبقي الآن أنّ أكتب بعض الصفحات الإضافية.

إنّني سعيدٌ بنجاح مجلة «الزمان». ومن المؤسف أنكم لا تستطيعون تنظيم إرسالكم الصحيح للمجلة. إنّني أقول هذا لا بسبب المصلحة الشخصية ـ لأنّني سأعود بنفسي قريباً ـ ولكن أقول ذلك لمصلحتكم. فمجلة «البشير الروسي» تُرسَلُ إلى هنا بشكل صحيح. (مع أنّني لم أحصل بعد على عدد شهر فبراير).

مرّة أخرى أُصافحكم مُصافحة حارة وبشدة، وأقول لكم شكراً. أبلغوا تحياتي لزوجتكم وليبارككم الربّ.

المُخلص لكم
إيفان تورغينيف
18 / 30 مارس، 1862
باريس شارع دي ريفولي، [210]

8

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

الأحد 4 مايو 1862

باريس شارع دي ريفولي، 210

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

الأحوال ليست مُثيرة للاهتمام على الإطلاق، ولكنها مهمة إلى حد ما، لقد أبقوني في باريس لفترة أطول مما كنت أتوقع، لكنني سأغادر من هنا بلا أي تأجيل خلال أسبوعين. وفي الثاني عشر من شهر مايو (حسب تقويمنا الميلادي) سأكون في بطرسبورغ. أود أن أُدرِككم هناك وأُحدثكم عن أمور كثيرة[1]. وللأسف فأن روايتي[2] المخصصة لمجلة «الزمان» لم

---

(1) وصل تورغينيف إلى سانت بطرسبورغ في السادس والعشرين من مايو، وهناك التقى على الأرجح مع ف. م. دوستويفسكي أكثر من مرة. وقد تحدّث ن. م. ستراخوف عن إحدى لقاءاتهما: «في عام 1862، وصل تورغينيف إلى سانت بطرسبورغ، وكان كالعادة يقضي الصيف في روسيا. وقد زار هيئة تحرير مجلة «الزمان»، ووجدنا مجتمعين، فقدم دعوة لميخائيل ميخائيلوفيتش، وفيودور ميخائيلوفيتش ولي إنا لتناول الغداء عنده، في فندق كلي (الذي أصبح الآن باسم «الفندق الأوروبي»). ومن الواضح أنّ العاصفة التي ثارت ضده قد أزعجته. وعلى طاولة الغداء، تحدث بحيوية وبهجة كبيرة، وكان الموضوع الرئيس هو موقف الأجانب من الروس الذين يعيشون في الخارج. كان يتحدث ببلاغة فنية عن الحيل الماكرة والدنيئة التي يستخدمها الأجانب لكي يبتزوا الروس، ويستحوذوا على ممتلكاتهم، ويحصلوا على وصاياهم لصالحهم وما إلى ذلك. وبعد مرات عديدة، كان هذا الحديث يطرأ ببالي، وكنت أتأسف على أنّ هذه الملاحظات الدقيقة، وبالطبع، العديد مما شابهها، التي جُمِعَت خلال فترة إقامتي في الخارج، لا تزال غير مروية في الصحافة».

(2) المقصود هنا رواية «الأشباح».

تكتمل بعد، ولكنها قد تكتمل في يوم أو يومين، وأنّني آمل أن أقوم بذلك في القرية. إنّ الأقاويل التي وصلتني عن رواية «الآباء والبنون» تؤكد توقعاتي: فباستثنائكم أنتم وبوتكين[1]، يبدو أنّه لم يُتعب أحد نفسه في فهم ما أردت القيام به. بالمناسبة، الكونت سالياس يوبّخني لماذا لم أُخرِج المُرتشين، والجنرالات وما إلى ذلك؛ لكي أُبينُ آل بازاروف. كما لو أنّ التوجه السلبي هو ظاهرة خاصة، ظاهرة شخصية (كل المُشككين الذين أعرفهم ينحدرون، كما لو كان ذلك عمداً، من عائلات محترمة للغاية)، وكما لو أنني كنت أرغب بإظهار انحطاط طبقة النبلاء، فلم يكن يجدر بي أن آخذ أفضل ممثليها مثل الأخوين من آل كيرسانوف.. إلخ. إنني لا أتحدث عن لومٍ من نوع مختلف كثيراً ما يكون متناقضاً، وفقاً لآل بازاروف. ويبدو أن لا أحد يشكّ في أنّني حاولت تقديم شخصية تراجيدية، لكن الجميع يقولون: لماذا هو سيّئ للغاية؟ أو: لماذا هو طيب للغاية؟ ولكن ليس ثمّة من شيء للحديث عن هذا الأمر: فلو نجح العمل الفني، فسيتحمل كل هذه الهجمات وسيظهر في النهاية، وإن لم ينجح فسوف يفشل مثل شيء غامض وغير مفهوم، وهذا ما يستحقه.

لقد طلبَت مني م. أ. ماركوفيتش أن تعرف ما إذا كنتم ترغبون بنشر روايتها في مجلتكم «الزمان». فثمّة لديها رواية واحدة جاهزة، كنت قد قرأتها، وهي تحمل طابعاً خاصاً لموهبتها، بكل ميزاتها وعيوبها. عنوانها: «أمورٌ تافهة»، وتضم حوالي 3 صفحات مطبوعة. العمل جيد، وأعتقد أنّه مُناسبٌ لنشره في مجلتكم. لقد أعطوها 250 روبلاً لنشرها في مجلة

---

(1) فاسيلي بتروفيتش بوتكين، وهو كاتب مقالات روسي وناقد أدب ومترجم. وكان أول المُستمعين لرواية «الآباء والبنون».

«الكلمة الروسية» مقابل كل صفحة، وأنها تريد نفس المبلغ. أرجو أن تردّوا علي فوراً، أي هل تريدون أن أرسِلها إليكم لقراءتها؟. وبعد أن تُقابلوني في بطرسبورغ، ستخبرونني بقراركم النهائي.

ليُباركم الرب. أصافحكم بودٍ وأبقى...

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

ملاحظة: من المؤسف أن مجلتكم «الزمان» لا تصل إلى هنا. المجلات الأخرى تصل بانتظام.

9

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

فيودور ميخائيلوفيتش العزيز

على الرغم من بقائي هنا اليوم، إلا أنني لا يُمكنني أن أكون عندكم. لذا، فإنّني أُصافحكم بحرارة وأقول لكم إلى اللقاء.

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

الخميس، 2 أغسطس، 1862

بطرسبورغ

10

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

27 مارس/ 8 أبريل، 1863

باريس،

شارع دي ريفولي، 210

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

اسمحوا لي أن أوصيكم بشدةٍ بحامل هذه الرسالة، دميتري بلاتونوفيتش لوماتشيفسكي. وها هي قصته باختصار. لقد ترعرع في الجامعة، ثم درس الأدب وكان مُدققاً لغوياً عند ستارتشيفسكي لبعض الوقت، وقد أراد السفر إلى فرنسا لتطوير لغته، ولم يتلقَّ من والده - وهو رجل ميسور الحال لدرجة كبيرة، ولكنه قديم الطراز - سنتاً واحداً، وأصبح في حالةٍ من الفقر المُدقع. فقمنا نحن هنا بإيصال الأموال إليه بطريقة ما لكي يعود إلى بطرسبورغ، وأنني الآن أكتب إليكم وأُناشدكم: هل لكم أن تتفضلوا عليَّ وتُساعدون السيد لوماتشيفسكي للوصول إلى أعلى الأماكن. أنّه يستحق عِنايتكم تماماً وسيؤدي بصدقٍ وأمانةٍ كلّ عملٍ يُناط به. ألا يُمكنكم تعينه مُدققاً لغوياً في مجلتكم؟ باختصار،

إنني مُتأكدٌ من أنكم لن ترفضوا مساعدة شخص فقير، وأمين ومُجتهد وساكون مُمتناً لكم من صميم قلبي.

أُصافحكم بودٍ وأبقى...

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

ملاحظة: لقد نشر السيد لوماتشيفسكي مقالتين في مجلة «البشير الروسي»، وكتب رواية أيضاً. وعموماً، فهو لديه ما تحتاجونه لإنجاز الأعمال الهجائية أو الأدبية الأخرى.

11

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

بادن بادن

شارع شيلر، 277

25 مايو، 1863

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

إنّني لم أكتب لكم منذ فترةٍ طويلة لأنّني أردت أن أُخبِركم بشيء إيجابي. والآن يمكنني أن أُعلِمكم بأنّني قد بدأت في إعادة كتابة العمل ـ والذي في الحقيقة، لا أعلم ماذا سأُسمّيه ـ على أنّه ليس قصة على أيّة حال، بل فانتازيا بعنوان: «الأشباح». وكنت قد عزمت على كتابتها منذ فترة طويلة، ولكنني لم أبدأ بها منذ وقت طويل. وأخشى أنها قد تبدو غير مُعاصرة، وتكاد أن تكون طفولية، وخصوصاً في هذا الوقت الصعب والمهمّ. على أيّة حال، سترون ذلك بنفسكم، وإذا لزم الأمر، سأكتب تمهيداً أو مقدّمةً اعتذارية[1]. ستصلكم خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وتحتوي على أكثر

---

(1) لقد طُبِعَت «مقدمة اعتذارية صغيرة» بالفعل أمام نص رواية «الأشباح» في مجلة «العصر» عام 1864. وتم الاحتفاظ بأوتوغراف هذه المقدمة في قسم أرشيف دوستويفسكي، والذي تم استلامه في عام 1821 من قبل الأرشيف المركزي. وإن في

من ورقتين مطبوعتين على حسابي. لقد استقرّيت هنا للصيف بأكمله وآمل أن أعمل. في باريس، لم أستطع القيام بأي شيء. أرسلوا لي رسائلكم إلى هنا. إن الهواء هنا عذبٌ والمكان جميلٌ.

لقد كانت تصلني أعداد مجلتكم «الزمان» بين الحين والآخر، وأنني أشكركم من صميم فؤادي على كلماتكم الرقيقة التي كنتم أنتم وموظفوكم تقولونها لي.

أختتم رسالتي بطلبٍ آمل ألا يُثقل كاهلكم. إنني مدين لصديقي الطبيب بافيل فاسيليفيتش أنينكوف بـ109 روبلاً و50 كوبيكاً. ادفعوا لهم من فضلكم هذا المبلغ في الحال مقابل علاقتنا المستقبلية. إنه يعيش في بناية غرافيه، ركن فلاديميرسكايا وزقاق غرافسكي. وإن كان قد غادر سانت بطرسبورغ، فأرجو أن تُرسلوا إليه هذا المبلغ إلى مدينة سيمبيرسك. وستكونون مُتفضّلين علي بذلك.

وأما بعد، فتحياتي لكم جميعاً وأُصافحكم بودٍ.

المُخلص لكم

إيفان تورغينيف

النص المطبوع اختلاف واحد فقط في عبارة مقتبسةٍ من الشاعر فيت: «لحظة واحدة وليست ثمّة حكاية خرافية». وهنا نص الأوتوغراف الذي يحمل عنوان «بدلاً من المقدمة» موقعاً من قبل إيفان تورغينيف: «إن أي عمل فني حقيقي ينبغي أن يتحدث عن نفسه، وأن يعتمد على نفسه، وبالتالي، لا يحتاج إلى شروحات وتفسيرات مُسبقة. ولعدم اقتناعي بأنّ رواية «الأشباح» تنتمي إلى هذا النوع من الأعمال، فقد قررت أن أطلب من القارئ، الذي ربما يكون له الحق في أن ينتظر مني شيئاً أكثر جديةً، أن لا يبحث عن أي مجازٍ أو معنى خفيّ في «الفنتازيا» المُقترحة، وإنما يرى فيها ببساطة عدداً من الصور المرتبطة بعضها بالبعض على نحو غير جديّ للغاية».

12

من دوستويفسكي إلى تورغينيف[1]

بطرسبورغ، 17 يونيو، 1863

العزيز المُبجل إيفان سيرغييفيتش

أستميحكم عذراً، بالله عليكم، لأنني لم أردّ على رسالتكم الأخيرة من بادن. وعلاوة على ذلك، فأنني مُذنبٌ بحقكم للغاية، إلى حد تأنيب الضمير كثيراً وبجديةٍ لأنني لم أرد على رسالتيكم اللتين سبقتا رسالتكم من بادن. لكن الحقيقة هي أن رسالتكم الأخيرة قد وصلتني في وقتٍ صعبٍ ومُقلقٍ للغاية، أي أثناء منع مجلتنا[2]. لقد كانت هناك الكثير من

(1) هذه الرسالة هي رد على رسالة تورغينيف الواردة أعلاه من بادن بتاريخ 13 مايو 1863؛ أما «الرسالتان السابقتان» لتورغينيف اللتان لم يردّ عليهما دوستويفسكي، فلعلهما لم تصلا إلينا، وربما أنّ إحداهما مؤرخة في 27 مارس من نفس العام. (انظر الرسالة أعلاه).

(2) قصة إغلاق مجلة «الزمان» بسبب مقالة ن. ن. ستراخوف «المسألة المصيرية» («الزمان»، 1863، العدد 4، صفحة 152 ـ 163) قد تم الحديث عنها بالتفصيل من قِبل ستراخوف في مذكراته عن دوستويفسكي؛ وكان هناك أيضاً فصل من الجدل بين الصحف والمجلات بسبب هذه المقالة. وهذا هو السبب الظاهري لمنع المجلة في (24 مايو 1863). أما الأسباب الحقيقة فقد كانت أعمق: ففي عام 1862، جذبت المجلة اهتمام الوزارات واللجان المُتخصصة، التي اعترفت بأنّ اتجاهها «غاضب»، والذي يحتوي على «إدانة صريحة لإجراءات الحكومة».

المشاغل والأحزان غيرهما من الأمور السيئة للغاية لدرجة أنني لم أستطع طوال شهر كامل أن أمسك ريشة الكتابة. فهل تُصدقون ذلك؟ أما فيما يخص الرسالتين السابقتين، فإنّ مرض زوجتي (السل)[1]، وفُراقي لها (لأنها تركت بطرسبورغ لفصل الصيف أو ربما لفترة أطول)، حيث قضت الربيع فيها (أي دون أن تموت في بطرسبورغ)، على الرغم من أنني رافقتها من بطرسبورغ، التي لم تعد تتحمل طقسها كثيراً)، ومن ثم مرضي الخطير والطويل إلى حدٍّ ما بعد عودتي من موسكو، كل ذلك منعني مرة أخرى أيضاً من الكتابة لكم حتى الآن. أي أنه لو كان من الضروري الردّ عليكم التزاماً بأصول اللباقة المُعتادة، لوجدت حينها الوقت لذلك. ولكنني، حسبما أذكر، أردت حينها أن أتحدث إليكم، أو على الأصح، أردت أن أصف لكم بالتفصيل ما كان يحدث في أدبنا آنذاك، ولهذا الشيء، كنت أبحث عن الفرصة المواتية حتى أضعت الوقت.

لذا، فأنّ مجلتنا ممنوعة، وعلى ما أعتقد أنكم تعلمون[2] بذلك على

---

(1) لقد دفع مرض زوجة دوستويفسكي الأولى ماريا دميتريفنا إيسايفا إلى الهلاك في وقت أقل من عام في 16 أبريل 1864.

(2) لقد عَلِمَ تورغينيف بشأن إغلاق مجلة «الزمان» ربما من رسالة ف. ب. بوتكين إليه بتاريخ منتصف شهر مايو عام 1863. وكتب بوتكين في هذه الرسالة التي نقتبس منها لأول مرة: ... لقد تم منع مجلة «الزمان» وأعتقد أنه لن يشفق عليها أحدٌ. لقد كان ذلك عبثاً مُكتنزاً ومُنتفخاً، ادَّعى الحياد. ولا وجود للحياد في العالم، وأنّ التقهقر الفكري، وعفن وفساد الطبيعة يتستر بهذا الاسم. أننا نمرّ بلحظة يجب أن نختار فيها جانبنا بحزم. اقرأ المقالات حول بولندا في العرض الموجز الفصلي. هذه هي الطريقة التي ينظر فيها الأشخاص الأذكياء والماهرون إلى الأمور...». وأنّ المثير للاهتمام هو رد فعل تورغينيف على هذه الخبر حتى قبل تلقي رسالة دوستويفسكي: «... لقد أدهشني هذا المنع ـ كتب في رسالة إلى ن. ف. شيربان بتاريخ 25 يونيو 1863 ـ وبالنسبة للأخوين دوستويفسكي، اللذين حرمهما المنع من لقمة العيش، وبالنسبة للحكومة، التي لا

فرض أنّ ثمّة صحفاً روسية في بادن. وحدث هذا المنع بشكل مُباغتٍ على كل حال بالنسبة لنا. وكانت لنا مقالة في شهر أبريل بعنوان «المسألة المصيرية». وأنكم تعرفون توجّه مجلتنا: وهو على الأغلب توجهٌ روسيٌّ، بل وحتى أنّه مُعادٍ للغرب. فهل من المعقول أنّنا نُدافع عن البولنديين؟ وبالرغم من ذلك، قد اتهمونا بمعتقدات لا وطنية، وبالتعاطف مع البولنديين ومنعوا مجلتنا بسبب مقالة كانت بحسب اعتقادنا وطنية للغاية. وصحيحٌ أنّ المقالة تحتوي على بعض الحرج في التعبير، وبعض التحفظات، مما أعطى حجّة لتفسيرها على نحو خاطئ. وقد كانت هذه التحفظات، كما نرى الآن، خطيرة للغاية وبالفعل، وكنا نحن المذنبين في ذلك. ولكننا كنا نأمل في الاتجاه السابق لمجلتنا والمعروف في الوسط الأدبي، لذلك اعتقدنا أنّ المقالة ستُفهم وأنّ التحفظات فيها لن تُفهم بالمعنى الخاطئ، وكان ذلك خطأنا. وتتجلى فكرة المقالة (التي كتبها ستراخوف) هي أنّ البولنديين يحتقروننا مثل البرابرة، ويتفاخرون أمامنا بأنهم أكثر رُقياً منا بحضارتهم الأوروبية، وبأنّنا أوطأ منهم لدرجة لا يبقى فيها أي مجال للتصالح الأخلاقي بيننا وبينهم (أي الأكثر ديمومةً). ولكن بما أنّهم لم يفهموا مضمون المقالة، فقد فسروها على النحو التالي: إنّنا نؤكد بأنفسنا أنّ البولنديين أرقى منا بحضارتهم، وإنّنا أوطأ منهم، وإنّهم بطبيعة الحال، على حقّ، ونحن المذنبون. وقد بدأت بعض المجلات (ومن بينها مجلة «اليوم») تُبرهن لنا بجديةٍ على أنّ الحضارة البولندية سطحيةٌ فحسب، وأنّها أرستقراطية جزويتيّة، وبالتالي، فهي ليست أرقى

تُدرك أنّها تُلقي بظلالها على صدق التصريحات الوطنية... وا أسفاه، وا حسرتاه على مجلة «الزمان».

من حضارتنا إطلاقاً. تخيّل أنّ تلك المجلات تُبرهن لنا ذلك، بينما كنا قد قصدنا في مقالتنا الشي نفسه. وعلاوة على ذلك، فأنّها تُثبت ذلك في الوقت الذي قُلنا فيه حرفياً أنّ هذه الحضارة البولندية التي يمدحونها كانت وما زالت تحمل الموت في قلبها. هذا ما ذكرناه في مقالتنا. وأنّ الحقيقة المُلفتة للنظر هي أنّ العديد من الأشخاص غير الرسميين من الذين تمرّدوا علينا بشكل رهيب، لم يقرؤوا مقالتنا، بحسب اعترافهم. ولكن لنكتفِ بالحديث عن هذا الأمر، فقد أصبح الأمر من الماضي، ولن نُعيده.

تقولون أنّكم تنوون الإقامة في بادن ـ بادن طوال الصيف. هل تعلم أنّه من المحتمل أن ألتقيك في بادن. سأطلب تصريحاً بالسفر إلى الخارج وآمل أن أُسافر. إنني مريض بالصرع، الذي بدأ يشتد للغاية ويجعلني أشعر باليأس. يا ليتكم كنتم تعلمون مدى الحزن الذي يعتريني أحياناً بعد نوبات الصرع التي تحدث لي لعدة أسابيع! إنني مسافرٌ إلى برلين وباريس، لفترة قصيرة إن أمكن، فقط من أجل استشارة الأطباء المُتخصصين في الصرع (مثل تروسو في باريس ورامبر في برلين). فليس ثمّة اختصاصيون لدينا، وأنّني أتلقى هذه التوصيات المُختلفة والمُتناقضة من أطبائنا المحليين لدرجة أنّني فقدت الثقة بهم تماماً. إن كنت في مكانٍ ليس ببعيد عنكم، فسأتعمد زيارتكم لكي أراكم.

بالنسبة لطلبكم بشأن المال، فأنّ أخي لم يستطع تلبيته، يا إيفان سيرغييفيتش المُبجل. أولاً، لأنّ المجلة لم تعد موجودة، وثانياً، لأنّه، (واعترفُ بصدقٍ) قد أفلس تماماً بسبب منع المجلة، وأنّ أسرته قد أضحت فقيرةً مُعدمةً. وبالتالي، لا تُطالبنا بشيء.

إلى اللقاء، يا إيفان سيرغييفيتش العزيز. من المحتمل أن نلتقي قريباً.

ولا يسعني أن أكتب لكم الآن أكثر من ذلك. ولا أعلم ما إذا كانت ستنشب الحرب، ولكن روسيا بأكملها والقوات والمجتمع بل وحتى الشعب بإرادةٍ وطنية كما هو الحال في عام 12. إنّني أقول ذلك بلا مُبالغة. لقد بدأت حركة عظيمة. ومهما يكن الأمر، إلا أنّ أوروبا لا تعرفنا جيداً. آنّها حركة ضخمة شاملة.

إلى اللقاء.

المُخلص

ف. دوستويفسكي

***

في الملف غير المنشور لـ«قسم الشرطة التنفيذية للملازم الثاني المتقاعد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي بشأن إجازته القصيرة إلى الخارج»، والذي كان في أرشيف لينينغراد المركزي، تم الاحتفاظ بوثائق مثيرة للاهتمام (لا تزال مجهولة في الصحافة)، والتي تُصور تقلبات حصول دوستويفسكي على تصريح للسفر إلى الخارج. في 13 يونيو 1863، وقد أُرسل الطلب الرسمي التالي على استمارة في مكتب الحاكم العام العسكري لسانت بطرسبورغ إلى وزير الداخلية آنذاك:

إلى السيد وزير الشؤون الداخلية

لقد تقدم لي الملازم الثاني المُتقاعد فيودور دوستويفسكي، الذي يسكن في سانت بطرسبورغ منذ شهر ديسمبر 1859، والذي يخضع لمراقبة سرية من الشرطة، بطلبٍ لإصدار جواز سفر أجنبي له لمدة ستة أشهر من

أجل تحسين صحته المضطربة. وفي الوقت نفسه، أوضح الملازم الثاني دوستويفسكي أنّ وضعه صعبٌ ومَيْؤوسٌ منه للغاية. وأنّ نوبات الصرع، التي كان يُعاني منها منذ فترة طويلة لم تتكرر أبداً كما هو الحال الآن، وخاصة في الشهر الماضي. وكانت ذاكرته تضعف مع كل نوبة إلى درجة قصوى، فلا يتعرّف على معارفه، وأنّه بعد بضعة أيام ينسى تماماً الكتاب الذي قرأه، مهما كان محتواه. وبالإضافة إلى ذلك، وبعد كل نوبة، يشعر بكآبة لا تُحتمل، مما قد يدفعه إلى الجنون أو اليأس. ونتيجةً لذلك، قرر دوستويفسكي السفر إلى الخارج، لكي يستفيد من توصيات المُتخصصين الأوروبيين الأكثر شهرةً، الذين يتعاملون بشكل رئيس مع أمراض الصرع، وهم: البروفيسور تورسو والأطباء تيربين ورامبر، وإذا لزم الأمر، يستفيد منهم لعدة أشهر.

وقد وجد المجلس الطبي في سانت بطرسبورغ من جانبه، بناءً على تقرير الأطباء المحليين بيسير وبراتش وروزينبيرغ، أنّ المُلازم الثاني دوستويفسكي يُعاني بالفعل من نوبات الصرع وأنّ رغبة صاحب الطلب بالاستفادة من توصيات البروفيسور تروسو والأطباء تيربين ورامبر، المعروفين في الوسط العلمي بأنّهم أفضل المتخصصين الأوروبيين في مجال الأمراض العصبية؛ جديرة بالاحترام، لأنّ العلاج في سانت بطرسبورغ لم يجلب له الراحة حتى الآن.

والتزاماً بواجبي إبلاغ سعادتكم بما تقدم، يُشرفني أن أطلب منكم بلطف تفضلكم الأسمى بتصريح إجازة للملازم الثاني فيودور دوستويفسكي للسفر إلى الخارج من أجل الاستفادة منه لمعالجة مرضه، وقد تم إرفاق الشهادة الطبية المُقدمة من قِبل دوستويفسكي.

الحاكم العام العسكري لسانت بطرسبورغ

الضابط المُرافق للجنرال أمير إيطاليا

الكونت سوفوروف ـ ريمنيكسكي

مدير المكتب تشيتيرين

وتم إرفاق ما يلي بالطلب الرسمي:

شهادة

مُنِحت هذه الشهادة للملازم الثاني المُتقاعد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي في أنّه يُعاني من الصرع وسيكون من المُفيد له استخدام السباحة البحرية في المحيط للشفاء من هذا المرض. ولإثبات ذلك، أضعُ ختمي وتوقيعي الشخصي. أستاذ الأكاديمية الإمبراطورية الطبية الجراحية، دكتوراه في الطب، ف. بيير.



نُصادق على صحة توقيع الدكتور بيير بتاريخ 13 أبريل 1863 إلى مقاطعة موسكو.

سانت بطرسبورغ 12 أبريل 1863 **(توقيع رئيس مركز الشرطة)** **المُراقب (توقيعه).**

وكما هو واضح من خلال وثائق المُعاملة، فقد رفض وزير الداخلية شخصياً الموافقة على هذا الطلب وقد أبلغ ألكسندر الثاني بو بتاريخ 27 يونيو 1863، فأبلغ رئيس القسم الثالث في مستشارية جلالة الإمبراطور،

الضابط المُرافق للجنرال الأمير دولغوروكوف وزير الداخلية بأنّ «سيادة الإمبراطور قد تفضل بالموافقة على هذا الطلب»؛ في 30 يوليو، أبلغ مكتب وزير الداخلية الأمير سوفوروف بذلك، والذي بدوره أبلغ دوستويفسكي.

لقد نفذ دوستويفسكي نيته على السفر إلى الخارج لتلقي العلاج بعد أن حصل على قرض عاجل من لجنة الصندوق الأدبي بمبلغ 1500 روبل في 23 يوليو 1836، والذي مُنِحَ له هذا المبلغ بكفالة حقوق المؤلف على جميع أعماله.

13

من دوستويفسكي إلى تورغينيف

19 يونيو، 1863، [سانت بطرسبورغ]

يسُرّني للغاية أنّني تباطأت بإرسال الرسالة ليوم واحد. لقد علِمت بالأمس برسالتكم إلى ف. ف. كروش. يا إلهي، أي حقٍّ لنا الآن (بل وحتى في السابق، على سبيل المثال) بعدم نشر ما تكتبونه في مجلتنا؟ لا سيما وبالطبع أنكم كنتم قادرين في السابق واثناء وجود مجلة «الزمان» بنشر مقالتكم عن بوشكين، لأنّك قد وعدتنا بروايةٍ، وهو أمرٌ عزيزٌ علينا خاصة بوصفنا ناشرين للمجلة، إذ أنّ المُنافسة الأشدّ لدى الصحفيين مُستمرةٌ دائماً تقريباً، وخاصة الآن حول الروايات والقصص الطويلة. وأنّكم تكتبون أيضاً إلى فالنتين فيدوروفيتش: «هل يسمح لي الأَخوانِ دوستويفسكي بنشر مقالاتي في مجلات أخرى؟»[1]. مرة أخرى، بأي حق الآن أن نُعرقلَ

(1) يدور الحديث هنا على ما يبدو حول «محاضرات عن بوشكين». ومن الواضح أنّ تورغينيف كتب إلى ف. ف. كروش (الرسالة مجهولة في الصحافة) أنّه لا يمكن نشرها الآن في صحيفة «وقائع سانت بطرسبورغ» التي هو رئيس تحريرها، لأنّه كان قد أعطى وعداً لدوستويفسكي منذ فترة طويلة بعدم نشر أي شيء قبل أن تُنشر روايته «الأشباح» في مجلة «الزمان». وستتعرف على ذلك من خلال رسالة تورغينيف إلى ب. ف. أنينكوف من بارسي بتاريخ 16 يناير 1863، إذ كتب له: ... أنّني ما زلت لا أستطيع

عليكم النشر، لا سيما وأنّ أخي لم يُلبِّ بعد طلبكم بشأن النقود؟ إليكم ما سأقوله، يا إيفان سيرغييفيتش الطيب. إن كنتم تستطيعون، أي إذا وجدتم ولو أدنى فرصة للتريّث في نشر رواية «الأشباح» إلى حد الخريف، فتريثوا بحق الله. لم أكن أرغب أن أكتب لكم قبل ثلاثة أيام عن ذلك لأسبابٍ عديدة، ولكنني أقول الآن أنّ لدينا بعض الأمل في أنّ مجلتنا قد تم تعليق صدورها لبعض الوقت فقط. وأنّنا على الأرجح لا نعرف ذلك، ولكن ثمّة دوافع هامة للتفكير هكذا. كل شيء سيتبين بشكل إيجابي في شهر سبتمبر. وإنكم تُدرِكون، يا إيفان سيرغييفيتش أنّ هذا مجرد طلب مُتواضع إليكم. وأنّنا لم ولا نفرض حقوقاً على أي أحدٍ. لقد أعطيتمونا وعداً من غير قيد، وبإرادتكم الخاصة، دون أن تربطوا نفسكم معنا بأي شيء آخر (أي، على

إرسال المحاضرات عن بوشكين، أو بالأحرى، يمكنني إرسالها، ولكن بشرط أن تُنشر بعد العمل الأدبي الذي ما زلت أعمل على إكماله لأجل «الزمان».

وأثناء ما كانت مجلة دوستويفسكي تصدر، كان ينبغي على كروش وأنينكوف أنهما حسبا حساباً لذلك، وهو ما يتضح من رسالة أنينكوف غير المنشورة إلى تورغينيف من بطرسبورغ بتاريخ 1 فبراير 1863: يُمكنِكم أن تُرسِلوا محاضرات عن بوشكين شريطة أن تُنشر بعد المقالة في مجلة «الزمان». وسيتم الالتزام بالشرط بقدسيةٍ، أما تلبية طلبنا، فأنّه سيُساعدنا على أن نكون مُرتاحين في الوضع التابع والثانوي الذي تقومون به إلينا. لَبُّوا ذلك واستعيدوا التوازن بين أصدقائكم...»

ومن الواضح أن أنينكوف بدأ مرة أخرى في الإصرار على نشر محاضرات عن بوشكين في صحيفة «الوقائع»، عندما تم إغلاق مجلة «الزمان»، لكنَّ تورغينيف ما زال يرى أنّه من الضروري أن يسأل «... هل يسمح لي الأخوان دوستويفسكي بنشر مقالاتٍ في مجلات أخرى...». وبعد أن تلقى رسالة دوستويفسكي الواردة أعلاه، قرر تورغينيف أخيراً تقديم مقالته عن بوشكين إلى صحيفة «وقائع سانت بطرسبورغ»، وهو ما يتجلى في رسالة ف. ف. كروش إلى ب. ف. أنينكوف بتاريخ 28 يونيو 1863: «... لقد تلقيت مؤخراً رسالة من تورغينيف، وعد فيها بإرسال مقالته عن بوشكين لصحيفة «وقائع سانت بطرسبورغ».

سبيل المثال، بالمال أو أية شروط أخرى). فما هي الحقوق التي يمكن أن تكون لدينا؟ أنا نفسي أديب، وأي طلبٍ إيجابي من جانبنا سيؤخذ على أنه وقاحةً. وأنّ هذا بالتالي مجرد رجاء وديّ ليس إلا.

ولكن هنا يكمن الأمر: إن مجلتنا بقيت مُستمرةً بالصدور لحوالي عامين ونصف تقريباً من غير دعم كبير من أدبائنا المشهورين، وأنتم لم تُعطونا أي شيء. في حين أنّ مجلتنا كانت نزيهة، هذا الأمر الأول، ثانياً، أنّها كانت تفهم الأدب وفحواه ورسالته وحقوقه أفضل بكثير من مجلات «المعاصر» و«البشير الروسي». وأنّ دعمكم كان من شأنه أن يمنح مجلة «الزمان» مزيداً من القوة. إليكم الطريقة: لو كنّا قد تمكنا من الظهور بنشر روايتكم في يناير، لكان عدد مشتركينا 5500 بدلاً من 4500. وهذا أمرٌ أكيد. أنّني أُكرر هذا الكلام الآن؛ وسبق وأن قلتُه في يناير. ولابدّ أن تفهموا، يا إيفان سيرغييفيتش: إذا عادت المجلة مرة أخرى للصدور، بل وربما بدءاً من الخريف، فكم سيكون دعمكم ذا أهمية كبيرة لها؟ وإذا استفادت منكم مجلة «الزمان» في أشد الأوقات حراجة بالنسبة لها، فلربما يكون الفوز حليفنا تماماً. لذا، إن أمكن، أجِّلوا تسليم رواية «الأشباح» إلى حد الخريف لمجلة أخرى. إن كان باستطاعتكم ذلك بالطبع. وليس لدينا أدنى حق في أن نُضيّقَ عليكم بأي شكل من الأشكال. وحتى طلبي هذا، إن كان لا يُعجبكم ويُثير اشمئزازكم قليلاً، فلا تترددوا أبداً في رفضه. وأنّني أعرض عليكم شيئاً واحداً: هو أنّكم يمكنكم أن تُشاركوا بشكلٍ كبير في النهوض بالمجلة، وهذا، بحسب اعتقادي، من أجلكم أيضاً. هذا كل ما يُمكنني قوله لكم من أجل إقناعكم. وداعاً وإلى اللقاء.

المُخلص

ف. دوستويفسكي

14

من دوستويفسكي إلى تورغينيف

تورينو، 6 أكتوبر، 1863

العزيز المُوقّر إيفان سيرغييفيتش

لقد تجوّلت في الأماكن كلها، وكنت في نابولي، وغداً أرتحل من تورينو إلى روسيا مُباشرةً. وعلى الرغم من حساباتي، فلم أستطع أن أُقرر بأي شكلٍ من الأشكال كيف يمكنني أن أُرسل عنواناً محدداً إليكم بشأن «الأشباح»؟ فقد كنت أتوقف في جميع الأماكن لفترة قصيرة، ويحدث أنني عندما أُغادر مكاناً اليوم لا أعلم عادةً إلى أين سأذهب غداً. فقد كانت جميع هذه الرحلات تجري حسب ظروفٍ لا تعتمد جزئياً على إرادتي[1]، بل كنت أنا من يعتمد عليها. ولهذا السبب لم أستطع معرفة كيفية إرسال العنوان المناسب لكي تتمكنوا من إرسال «الأشباح»[2] إليّ.

---

(1) يقصد دوستويفسكي تجوله برفقة أ. ب. سوسلوفا.

(2) في ذلك الوقت، أرسل تورغينيف مخطوطة «الأشباح» إلى سانت بطرسبورغ إلى ب. ف. أنينكوف، وبالرسالة الآتية (بتاريخ 15 سبتمبر): أرجو أن تقرؤوا هذا الهراء باهتمام وتُقرروا ما إذا كان يستحق نشره في الوقت الراهن، أم أنه من الأفضل تأجيله إلى أيام أكثر هدوءاً. وإنْ قررتم أنه يمكن نشره، ففكروا كيف يمكن القيام بذلك. لقد وعدتُ

لقد تلقيتُ من أخي رسالةً عندما كنت في نابولي، كتب فيها لي أنّ لديه آمالاً كبيرة بالحصول إلى إذن لاستئناف صدور مجلة «الزمان» وأنّ هذه المسألة ستُحل في القريب العاجل. ومن المُحتمل أنها قد حلت الآن، وعن نفسي أظن، وفقاً لبعض المُعطيات والتعليقات، أنّ «الزمان» ستُعاود الصدور. وبما أنّ القرار سيصل في شهر أكتوبر، فأنّ أخي يرغب حتماً أن يصدر عدد شهر نوفمبر. وبالنسبة لأولئك الذين لم يستلموا شيئاً لمدة ستة أشهر، فأننا سنُقدم لهم ستة أعداد مجاناً في العام القادم.

إنّني أكتب إليكم بصراحة: أنّ روايتكم «الأشباح» ذات أهمية كبيرة بالنسبة لنا في عدد نوفمبر. وبالتالي، إن كنتم ترغبون في أن تُقدّموا خدمة كبيرة لنا، فأرسلوا «الأشباح» إلى بطرسبورغ في أسرع وقت ممكن. وأنني سأكون في بطرسبورغ في ذلك الوقت. ولكن، بما أنني لا أملك شقة في بطرسبورغ، فأرسلوا الرواية على عنوان أخي الآتي:

ركن شارع مالايا ميشانسكايا وزقاق ستوليارني، مبنى يفرينوف، ميخائيل ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

أسدوا لي معروفاً وأكتبوا لي سطرين على الأقل بهذا الشأن. أنني مُتأسفٌ غاية الأسف. فمنذ أن كنت في بطرسبورغ، قررت البقاء في بادن (ولكن ليس من أجل الشيء الذي أتيت له)، وإنما لرؤيتكم والتحدث إليكم. وهل تعلمون: لقد كان لدي الكثير لأُخبركم به وأسمع رأيكم فيه. إلا أنّ ذلك الأمر لم يحدث على أيّة حال. وفوق ذلك، حصل «تمرد

تحرري مجلة «الزمان» بنشر «الأشباح» في مجلتهم، ولكن منذ ذلك الحين أصبحت مجلة «الزمان» نفسها شبحاً. فقد طلب مني دوستويفسكي (الذي زارني مؤخراً في بادن) الانتظار حتى أكتوبر، على أمل أن يُسمح، ربما، لمجلته أن تُعاود الإصدار مرة أخرى؛ وفي هذه الحالة، بالطبع، يجب أن يُنشر عملي الأدبي في مجلته...».

العواطف» اللعين[1]. ولو أنني لم أكن آمل أن أفعل شيئاً أكثر ذكاءً في المستقبل، فعندئذ، سيكون الأمر الآن مُخجلاً للغاية بالنسبة لي. ولكن، ما العمل؟ هل يجب علي أن أطلب السماح من نفسي لنفسي؟

ثمّة عملٌ شاقٌ ينتظرني في بطرسبورغ. وعلى الرغم من أنّ صحتي قد تحسنت بشكل كبير، إلا أنني أعلم حتماً أنها ستتدهور هذه الصحة كلها بعد شهرين أو ثلاثة أشهر. ولكن لا مفرّ من ذلك. وأنني لا أدري بعد كيف ستسير الأمور. وينبغي بناء المجلة من جديد تقريباً. ويجب جعلها أكثر حداثةً، وأكثر متعةً وفي الوقت نفسه يجب إيلاء الاهتمام بالأدب، وهذه مهامٌ لا يجمعها أحد بحسب رأي العديد من المُفكرين في سانت بطرسبورغ. إلا أننا نعتزم مُجابهة بوادر الازدراء بالأدب بحزم. وما عسانا أن نتراجع عن الأمر. فساندونا من فضلكم، وكونوا معنا. أنني أُقدم صحتي فداءً للمجلة. وأحصل على القليل من المال، وأعلم أنّ مشقة الأدب لن تؤتي ثمارها (المجلة غارقة بالديون)، ولكنني مع ذلك ما زلت باقياً في بطرسبورغ، حيث يمنعني الأطباء من العيش فيها الآن، وحيث أرى بنفسي أنه ممنوعٌ علي العيش فيها الآن.

وثمّة شيءٌ آخر: لنتراسل بين الحين والآخر من فضلكم. أقول لكم ذلك من صميم فؤادي.

إلى اللقاء، أُصافحكم بحرارةٍ.

المُخلص

ف. دوستويفسكي

---

(1) المقصود هنا لعب الروليت (القمار).

لم أكتب لكم أي شيءٍ عن رحلتي. لقد أدهشتاني كثيراً مدينتا روما ونابولي. إنني لأول مرةً أكون فيها هناك. ولكن، كما تعلمون، من المستحيل البقاء وحيداً هناك لفترةٍ أطول، لذلك، أرغب بشدة في الذهاب إلى بطرسبورغ.

اكتبوا لي، أرجوكم، كم تريدون أن نُرسل لكم مقابل رواية «الأشباح»؟ سوف أُخبر أخي بذلك. بالطبع أنّنا سندفع لكم أيّ مبلغ تطلبونه.

15

من دوستويفسكي إلى تورغينيف

بطرسبورغ، 23 ديسمبر 1863

الطيب المُوقر، إيفان سيرغييفيتش

لقد قال أنينكوف لأخي إنه يبدو أنكم لا تريدون نشر «الاشباح»[1]

---

(1) بعد مرور ما يزيد عن شهر قليلًا من تسليم «الاشباح» أخيراً إلى دوستويفسكي، تورغينيف المُتوجس، والذي كان قلقاً للغاية بشكل عام من أنّه في عصر الواقعية القتالية والرواية الاجتماعية آنذاك؛ أصدرَ بشكل غير متوقع نتاجاً خيالياً، وكذلك تحت تأثير عدد من الآراء غير الإيجابية لأصدقائه حول هذا النتاج، فكتب إلى أنينكوف (في رسالة بتاريخ 18 نوفمبر): «... إنّ تيوتشيف والعديد من الأصدقاء الآخرين لا ينصحونني بنشر «الاشباح»، أُطلب من دوستويفسكي عدم وضعها في برنامجه، وألّا يقول أن هذا الشيء سيظهر في المجلة...». وفي 9 ديسمبر كتب له مرة أخرى: «... أُطلب من دوستويفسكي عدم نشر الأشباح قبل وصولي... ». فردَ أنينكوف على هاتين الرسالتين إلى تورغينيف في 15 ديسمبر بما يلي: «... لا أدري ما الذي يجعلك تؤجل نشر أكثر نتاجاتك روعةً. أمن المعقول أنّ ذلك عدم ثقةٍ في النفس... لا أعتقد أن رأي تيوتشيف أو بصيرة بوتكين المشلولة والمُنهكة يمكنهما أن يُقنعاك بأن ليس ثمّ من واقع، ونضارة، وشعر ونوع من الحقيقة في «الاشباح»؟ ولكن، إن كنت تصر على ذلك، فاكتب عن طريقي رسالة إلى دوستويفسكي بمنع إيجابيٍّ باسمك من أجل أن تُبعدني عن أي شك في أي توبيخ، فقد كنتُ قد عقدت صفقة معه. كان ينبغي عليه في القريب العاجل أن يجلب إليّ 1000 روبل، وهو أجرُنا المشروط لقاء القصة، وسأطلب منه انتظار رسالة أو رسالتين...».

لأنّ ثمّة الكثير من الأشياء الخيالية في هذه القصة. وأنّ هذا الأمر قد أربكنا للغاية. بادئ ذي بدء، أقول بصراحة، أنّنا، أي أنا وأخي، نعتمد على روايتكم. وأنّها ستساعدنا كثيراً في العدد الأول من مجلتنا التي بدأت من جديد في صدورها، والتي بالتالي، ستشق طريقها مرة أخرى. وأنّني أبلغكم بذلك خصيصاً لكيلا تشكون في الدوافع الأخرى لهذه الرسالة، وفي أنّني أتحدث بدافع من المصالح الشخصية. وأضيف سبباً آخر، بأنّني أُعطيكم كلمة شرف تدل على صحة ذلك: أنّنا بحاجة إلى قصتكم أكثر بكثير من التباهي باسمكم على غلاف المجلة.

والآن سأخبركم ببضع كلمات عن روايتكم حسب انطباعي. لماذا تعتقدون، يا إيفان سيرغييفيتش (إن كنتم تعتقدون ذلك فقط) أن روايتكم «الأشباح» ليست في وقتها المناسب وأنّ القُراء لن يفهموها؟ بالعكس، أنّ البلاهة، وستة سنوات مُتتالية من تقليد الحاذقين، قد أوصلت الإيجابيات إلى مثل هذا الابتذال، مما يجعل القُراء مسرورين بنتاج شاعري بحت (وربما أكثر شاعرية). والكثير منهم سيستقبلونها ببعض الحيرة، ولكنها حيرة مُريحة. وهكذا سيكون موقف جميع المُتفهمين سواء من أبناء الجيل القديم أو الجديد. أما الذين لا يفهمون شيئاً، فهل يجدر بنا أن نلتفت إليهم حقاً؟ ربما أنّكم لا تُصدقون كيف ينظرون إلى الأدب. أنّ كل ما يطلبونه هو النفعية المحدودة. اكتبوا لهم العمل الأكثر شاعرية؛ وسيضعونه جانباً ويأخذون ويُقبلون على الموضع الذي يُوصف فيه بأنّهم لا يفهمون أي أحدٍ. ويعتبرون الحقيقة الشاعرية تفاهةً. وما عليهم سوى أن يستنسخوا شيئاً ما من الحقيقة الواقعية. النثر

فظيعٌ عندنا. وكأنّه ارتجاف الكويكرز[1]. فليست ثمّة حاجة للالتفات إليهم بعد ذلك. إن الجزء السليم من المجتمع الذي استيقظ، يتعطش إلى عملٍ جريءٍ من الفن. بينما روايتكم «الأشباح» عملٌ جريءٌ للغاية. وستكون نموذجاً رائعاً (بالنسبة لنا جميعاً)، إن كنتم أول من يُقدم على هذا العمل. وإن شكل رواية «الأشباح» سيُدهش الجميع. أما جانبها الواقعي فسيكون مُتنفساً لذلك الاندهاش (باستثناء اندهاش الحمقى وأولئك الذين لا يرغبون فهم أي شيء سوى ارتجافهم الكواكري). إنّني، بالمناسبة، أعرف إحدى النفعيات (العدميات)، والتي، على الرغم من أنّها ظلت مُستاءةً من روايتكم، إلا أنّها قالت: «من المستحيل التوقف عن قراءتها، لقد أحدثت في نفسي انطباعاً شديداً». ومن المُتعارف عليه أنّ لدينا عدداً كبيراً للغاية من العدميين المُتكلفين. إلا أنّ الشيء الرئيس في هذا الأمر هو فهم هذا الجانب الواقعي. وحسبما أظن، ثمّة الكثير من الأشياء الواقعية في «الأشباح». وأنّ هذا الواقع هو اشتياق المخلوق الواعي المُثقف الذي يعيش في زماننا، الاشتياق الذي يكتنف الرواية. وأنّ «الأشباح» بأكملها مليئة بهذا الاشتياق. إنه «وترٌ يطنُ في الضباب»[2]، وحسناً يفعل عندما يطن. إن «الأشباح» أشبه بالموسيقى. بالمناسبة: ما رأيك في الموسيقى؟ أهي مُتعةٌ أم ضرورة إيجابية؟ في رأيي، أنّها اللغة نفسها، لكنها تُعبر عمّا لم يستطع الوعي التغلب عليه بعد (أقصد الوعي برمته، وليست العقلانية)، وبالتالي،

---

(1) أشار دوستويفسكي خصيصاً بكلمة «ارتجاف الكويكرز» جدلياً إلى الافتقار للمبدأ الجمالي في الأدب المُعاصر (كانت قناعات الكويكرز، وهم أعضاء طائفة دينية في إنجلترا وأمريكا في منتصف القرن السابع عشر، تتسم بالتزمُّت، والنفعية ورفض الفن).

(2) اقتباس من «مذكرات مجنون» لنيكولاي غوغل (1835).

فهي تجلبُ الفائدة الإيجابية. أصحابنا النفعيون لن يفهموا ذلك؛ غير أنّ أولئك الذين يحبون الموسيقى من بينهم لم يتخلوا عنها وما زالوا يُمارسونها معنا كما في السابق. إن شكل روايتك «الأشباح» رائع. وإذا كان ثمّة شيء يستدعي الشك، فأنّه بالشكل بالطبع. إذن، بيت القصيد يتجلى في المسألة التالية: هل يحق للشيء الخيالي أن يتواجد في الفن؟ ولكن من يُجيب على هذه الأسئلة! وإن كان ثمّة شيء ما في «الأشباح» يمكن انتقاده، فهو أنّها ليست خيالية تماماً. ولعله هناك ضرورة للمزيد من الخيال. عندها سيكون هناك المزيد من الجرأة. إن المخلوق الذي يظهر في قصتك يُفسر على أنّه مصاص دماء. وفي رأيي لا لزوم لهذا التفسير. لقد اختلف أنينكوف معي وقدم حججاً أنّه ثمّة تلميحات إلى فقدان الدم، أي فقدان القوى الإيجابية، وما إلى ذلك. وأنّني أختلف معه أيضاً[1]. يكفيني أنّني فهمت بشكلٍ ملموس للغاية الكآبة والشكل الرائع الذي تمخّضت عنه، أقصد هيجان الواقع بأكمله بلا أية تهدئة. وأنّ الأسلوب جيد، أسلوب يكتنفه الحزن الرقيق بلا غيظ شديد. وأنّ المناظر الطبيعية كالجُرف وما شابهه، هي تلميحات إلى فكرة عفوية لا تزال غير محلولة (الفكرة ذاتها الموجودة في الطبيعة بأكملها)، والتي لا يُعرف ما إذا كانت ستحل المسائل البشرية في وقت ما، ولكن القلب الآن يحزن ويرتعد خوفاً منها أكثر على الرغم من أنّه لا يرغب بالانفصال

(1) لقد كان انعكاس الخلافات بين دوستويفسكي وأنينكوف هو غياب المنطق المعروف لصورة إليس عند تورغينيف. ولعدم مُقارنته إليس بمصاصي الدماء بشكل مباشر، ترك الكاتب في النص النهائي عدة تلميحات على أنّها لا تزال مصاصة دماء، أي أنّها الكائن المسؤول عن فقدان «القوى الإيجابية» من قبل بطل «الأشباح».

عنها[1]. لا يا سيدي، إن هذه الفكرة تحديداً قد أتت في الوقت المناسب، وإن مثل هذه النتاجات الخيالية ذات طابع إيجابي للغاية...[2]

---

(1) يقصد هنا دوستويفسكي «عزيف العاصفة الأبدي، والنسيم المُرعب للهاوية المُتهايلة» الموصوفة في «الأشباح» بالقرب من جرف بلاك غانغ في جزيرة وايت، وهي الهاوية التي تُلهم المرء فكرة اللامبالاة القاسية بالطبيعة و«الخوف» من مواجهة الموت.

(2) تم الاحتفاظ برسالة دوستويفسكي هذه بلا نهاية. ومما لا شك فيه، أن تورغينيف كان يقصد تحديداً رسالة دوستويفسكي هذه عندما كتب إلى م. أ. ميليوتينا في 3 ديسمبر 1872 قائلاً: «... الشيء الغريب الوحيد هو أنه [دوستويفسكي] قد اختار للمحاكاة الهجائية في روايته [الشياطين] الرواية الوحيدة التي نشرتها ذات مرة في مجلته، وهي الرواية التي بسببها كان يُمطرني برسائل الشكر والثناء...».

16

من دوستويفسكي إلى تورغينيف[1]

بطرسبورغ، 20 سبتمبر 1864

العزيز المُبجّل إيفان سيرغييفيتش

أخبرني إيغور بيتروفيتش[2]، أولّا، أنّك ميالٌ إلى مجلتنا بشكل جيد، وثانياً، أنّك وإيّاه قد شعرتما في بادن ببعض الحيرة بشأن اسم بوريتسكي الذي يُعدّ رئيس التحرير الرسمي لمجلتنا. وقد فهمتُ من خلال كلام

---

(1) هذه الرسالة لتعود لتاريخ 10 يونيو 1864، حيث أصبح فيودور دوستويفسكي بعد وفاة أخيه ميخائيل دوستويفسكي، محرراً ورئيساً للمجلة. لكن أسباب الطابع الرقابي أجبره على التخلي عن التعيين الرسمي كمحرر، والذي وفقاً للقرار العام للموظفين الرئيسيين لمجلة «العصر»؛ ستراخوف، وأبولون غريغورييف وآخرون، اقتُرِح أن يصبح ألكسندر أوستينوفيتش بوريتسكي رئيساً للتحرير.

(2) كان إيغور بتروفيتش كوفاليفسكي في ذلك الحين رئيساً لجمعية تقديم الإعانات المالية للعلماء والكتاب المحتاجين؛ وبفضله، تمكن دوستويفسكي من الحصول في عام 1863 على قرضين نقديين من الجمعية بقيمة 1500 روبل لكل منهما (من أجل السفر إلى الخارج لتلقي العلاج الطبي) وفي عام 1864 (من أجل الدعم المادي لمجلة «العصر»). يتضح من المراسلات غير المنشورة بين أنينكوف وتورغينيف أنّ كوفاليفسكي أمضى صيف عام 1864 في بادن، حيث التقى بتورغينيف. وقد عاد كوفاليفسكي إلى روسيا في شهر سبتمبر.

كوفاليفسكي (إن لم أكن مخطئاً) أنّ اسم بوريتسكي غير المعروف يمكن أن يمنعك ربما جزئياً الآن من تزودينا في مجلة «العصر» بقصة طويلة أو رواية (أعني في المستقبل، حينما تكتبها). وأعتقد أنّه من المفيد أن أفسّر لك جوهر المسألة. أنّ بوريتسكي هو أحد معارفنا (أنا والمرحوم أخي) عن طريق عائلة مايكوف منذ 17 عاماً تقريباً. وكان سابقاً يكتب «الاستعراض الداخلي» في «مذكرات الوطن». وكان يُزاول كتابة هذا في مجلة «الزمان» أيضاً في عام 1861، ومن ثم حلّ محله رازين. وقد أبلغوني الآن أن ليس باستطاعتي أن أكون رئيساً للتحرير بشكلٍ رسمي، وينبغي علي أن أبحث عن رئيس تحرير رسمي. إن بوريتسكي إنسانٌ هادئ، وديعٌ، ومثقف للغاية وليس صاحب شهرة أدبية (وإن لم يكن الرجل صاحب شهرة أدبية كبيرة مثل بيسيمسكي، فمن الأفضل أن يكون بلا شهرة إطلاقاً، وهذا سيكون أكثر نفعاً للمجلة)، ولكن الأهم من ذلك: هو أنّه مستشار مدني. وأنّني قدّمته بوصفه محرراً، وقد وافقوا عليه لأنّه مُناسبٌ للشروط تماماً. وأنّه يُساعدني في التحرير، بل حتى أنّه بدأ في كتابة «الاستعراض الداخلي»، ولكننا جميعنا، نحن الموظفين السابقين، نتولى عمل الإصدار وأنا في طليعتهم. ويبدو أنّ الأمور تسير بشكلٍ لا بأس فيه، ولدينا ما يكفي من المال حالياً.

ولكن كل هذه التحولات لها تأثيرٌ كبير على الجمهور أيضاً. ويتعين علينا الآن، الآن تحديداً، أن نُصرّح بأنّ الموظفين الرئيسيين السابقين لا يتجنبوننا، أما إذا شاركت أنت في المجلة، فسيفهم الجمهور أخيراً أنّ المجلة تسير في طريقٍ جيد للغاية. لذا، لا أُخفي عليك مقدار ما ستعنيه مشاركتك بالنسبة لنا. أرجو منك كثيراً يا إيفان سيرغييفيتش أن تكتب

لي عن ذلك، هل بإمكانك أن تُعطينا وعداً بأول قصة طويلة أو رواية تكتبها؟ لدينا عدد كبير من المشتركين. وستكون مجلتنا في الطليعة من حيث النزاهة والمصداقية الأدبية (أي أنّنا لا نُخالف ضميرنا) ومن حيث القسم الانتقادي. إن مجلة «المُعاصر» أخذت تهبط بشكل فظيع، و«البشير الروسي» تحولت إلى مجلة دورية. في الحقيقة، أنا لا أتباهى. باختصار، فليحدث ما يحدث، ونحن سنبذل قصارى جهدنا.

لقد تأخرنا قليلاً. فقد أوقفَت وفاة أخي إصدار مجلتنا لمدة شهرين، وبالرغم من تأخّر الجميع، إلا أنّنا كنا أكثرهم تأخراً. لكننا سنلحق بالركب. لقد نقلتُ الأعمال إلى مطبعة أخرى، وأنّنا نعمل فيها بجهدٍ كبير. ونرغب في إصدار عدد شهر يناير 1865 قبل الجميع.

حتى الآن، لم أستطع شخصياً كتابة سطر واحد. إنّني أعمل ليلَ نهار وقد أصابتني نوبتان من الصرع. كل الأعمال تقع على عاتقي، وأهمها جزؤها الطباعي؛ فأنا الآن الوحيد في العائلة. ولكن الحمد لله، تمّ ترتيب بعض الأمور، وأنّني لا أفقد الأمل.

أُكرر لك ثانية: إنّ مشاركتك تعني لنا الكثير. ولن نندم على دعمك لنا. بالطبع، كل واحد يمدح نفسه. لكن هذا أفضل مما لو نظرت إلى عملي الحالي بارتياب. كم أرغب بإرسال مجلتنا إليك.

لقد أرسل أوستروفسكي لتوه رسالة حميمة. يعدُني فيها بإرساله حتماً مسرحيتين كوميديتين في غضون هذا العام (وستكون لي مقالة في هذا العدد عن أوستروفسكي، وعلى الرغم من أنها مقالة أمتدحه فيها، إلا أنّها ذلك يأتي بقدر أكبر من الحيادية. وأنّه لم يطّلع عليها بعد.

لكنني لا أرغب ولا أعتقد في أنها ستتسبب بتأثير عدائي عليه بعلاق مع المجلة).

إلى اللقاء، أصافحكم بحرارة.

المُخلص لك

ف. دوستويفسكي

17

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

بادن ـ بادن

شارع شيلر، 277

3 / 15 أكتوبر، 1864

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

لقد كنت أنوي الرد على رسالتك المؤرخة في 24 أغسطس ـ ولكن ظهر لدي عمل هنا ـ ونسيتها. وثمّة أمرٌ آخر أعترفُ أنني مذنب فيه أمامك: وهو أنّ رسالتك الأخرى بتاريخ 20 سبتمبر قد ذكرتني بواجبي، فسارعت إلى تنفيذه. سأُباشر به بالتأكيد، وأنّ مشاعري تجاه مجلتك لم تتغير على الإطلاق، وأنّني على أهبة الاستعداد من صميم فؤادي للمساهمة بنجاحها، وعلى قدر المستطاع، وأعِدُك بنشر أول رواية كتبتها في مجلتك[2]. ولكن لا يمكنني وضع حدّ زمنيّ ريثما يُكتب هذا العمل، لأنّني أصبحت كسولاً

---

(1) رسالة تورغينيف هذه هي ردّ على رسالة دوستويفسكي السابقة بتاريخ 24 أغسطس 1864، والتي كان تورغينيف «ينوي الرد عليها». وهي مجهولة في الصحافة.

(2) لم يُنفذ تورغينيف هذا الوعد، لأنّ مجلة «العصر» توقفت عن إصدارها في عدد شهر فبراير عام 1865.

تماماً، لم أمسك ريشة الكتابة منذ أكثر من عام. هل سأصبح نشطاً في نهاية الأمر. الله وحده يعلم ذلك. ولكن إن حدث معي هذا الشيء، فأنّ عملي سيكون في خدمتك لا غير. لطالما كنت أفكر فيك طوال هذا الوقت، وفي جميع الصدمات النفسية التي أصابتك، وسعيدٌ من كلّ قلبي لأنّك لم تسمح لها بتحطيمك كلّياً[1]. وأنّني خائفٌ على صحتك فقط، مهما تضررت من جراء الاعمال المُفرطة. وأنا شخصياً متأسفٌ للغاية لأنّني لا أرى مجلة «العصر»، وآمل تدبيرها بشكل أفضل من العام القادم.

أرجو أن تنقل تحياتي الودّية إلى موظفيك كافة، وتقبّل تأكيداتي بمشاركتي الصادقة في عملك وحُبّي إليك.

المُخلص لك

إيفان تورغينيف

(1) تورغينيف يقصد هنا منع مجلة الأخوين دوستويفسكي «الزمان» في (24 مايو 1863)، ووفاة زوجة الكاتب الأول، ف. م. دوستويفسكايا في (16 أبريل 1864)، ووفاة أخيه م. م. دوستويفسكي في (10 يوليو 1864).

18

من دوستويفسكي إلى تورغينيف

بطرسبورغ، 14 ديسمبر 1864

المُحترم إيفان سيرغييفيتش

عذراً لإزعاجك. لقد وعدتّنا، في حال ستكون ثمّة قصة طويلة لديك، ألّا تنسانا بها. وأنّ الوقت الآن، بالنسبة لمجلاتنا، عصيبٌ للغاية. فإذا كان ممكناً أن تنشر ولو شيئاً ما من أعمالك في عدد شهر يناير، فسوف يكون الأمر عظيماً. أنا لا أدعي أي شيء، بالإضافة إلى أنّك أخبرتني ألّا أضايقك. ولكنَّهم يقولون هنا بل وحتى نشروا بأنّك قد شرعت بكتابة عدد من القصص القصيرة وقد أنهيت بعضها. وأخبرني بذلك كوفاليفسكي أيضاً. فانّ كان مناسباً لك أن ننشر ولو قصة واحدة من هذه القصص الآن، فاسمح لنا بذلك بالله عليك، إذا كان ذلك لا يُضايقك في أي شيء. أولاً، نحن سنقف معك، وثانياً، سنلتزم بوعدنا، وسيرى الجميع أنّنا التزمنا بوعدنا (لقد نشرتُ للتوّ في إعلان بالمجلة أنّني آمل أن أنشر أول ما ستكتبه في مجلة «العصر»).

وأقول بلا تفاخر أنّ مجلتنا تحتل المرتبة الأولى، على الأقل بين مجلات بطرسبورغ. وأنّنا على عجلة من أمرنا للغاية، وهذا الأمر يضرّ

بنا كثيراً، لكن الجمهور راضٍ. نسمع آراء جيدة، بل وجيدة للغاية. ولكن هذه البدايات فقط. وابتداءً من العام القادم (خاصة عندما نكون غير مُتأخرين في مواعيدنا، فقد تأخرت المجلة بعد وفاة أخي) سيكون هناك شيء مُختلف، وسيكون أفضل بثلاث مرات، وأنا المسؤول عن ذلك. وأنني أجلس ليلاً ونهاراً، وأتنقل، وأكتب، وأُصحح، وأتعامل مع المطابع والرُقباء وما إلى ذلك. لا أستطيع أن أتباهى بصحتي، ولكنني في نهاية أبريل سأُسافر حتماً إلى الخارج لمدة ثلاثة أشهر من أجل التعافي. وسوف أُعرّج عليك أيضاً. وفي الخريف سأُباشر بالعمل من جديد. أريد أن أكتب قصة طويلة خارج البلاد. على أيّة حال، الله أعلم ما الذي ينتظرنا، ولكن في غضون ذلك لا بدّ من إصدار المجلة بشكلٍ أفضل. أتعلمُ ما الأمر؟ لقد اتضح أنّني لم أكن رجلاً عملياً تماماً. والأمور تسير بشكل لا بأس فيه للغاية. فقد بدأ الاشتراك في وقت متأخر لدى الجميع، ويمكنني القول إنّه من بين مجلات بطرسبورغ، كان الاشتراك جيداً عندنا فحسب. ولم يسبق لي أن كنت في غمرة مثل هذا العمل الشاق كما هو الحال الآن. يمكنك أن تتخيل كيف ستسعدني بجوابٍ شافٍ. ولكن على أية حال، اكتب لي ولو سطرين رداً على هذه الرسالة. كلمتين على الأقل لكي يكون لدي علم. ساند مجلتنا يا إيفان سيرغييفيتش!

المُخلص لك

فيودور دوستويفسكي

حتى لو كنت ستُرسل القصة في الأول من يناير بحسب تقويمنا

الميلادي، فإنّها ستأتي في الوقت المناسب. بل وحتى يمكن أن يكون ذلك في وقت لاحق.

ولكن لا تحسب رسالتي بأي شكلٍ من الأشكال إزعاجاً. لقد فهمتُ جيداً كلامك عن عدم إزعاجك. فلا تغضب على أيّة حال.

19

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

بادن ـ بادن

شارع شيلر، 277

28 ديسمبر، 1864

9 يناير، 1865

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

إنني أُسارع للردّ على رسالتك. في نيّتي المُساعدة في نجاح مجلتك قدر استطاعتي، وآمل أن لا يكون لديك أدنى شك في ذلك، ولكن لا يزال ذلك في المُستقبل. وإنني أعدُك وعد شرف بأنّه ليس لدي أي شيء على الإطلاق، وليست لدي قصة جاهزة فحسب، بل التي بدأتها أيضاً. إن القصة القصيرة التي تحمل عنوان «الكلب»، والتي كان هناك حديث عنها في مجلات مُختلفة، موجودة بالفعل الآن بين يدي أنينكوف. لكنني قررت، بناءً على نصيحة كافة أصدقائي، عدم نشر هذا الشيء التافه (في بضع صفحات)، والتي، بالإضافة إلى ذلك، لم أتوفق فيها. وإن أنينكوف

(1) رسالة تورغينيف هذه هي ردّ على رسالة دوستويفسكي السابقة رسالته بتاريخ 14 ديسمبر 1864، والتي كان تورغينيف «ينوي الرد عليها»، وهي مجهولة في الصحافة.

سيؤكد لك ذلك. وقد كانت سبب الاشاعات التي انتشرت حول عدد من القصص القصيرة المُتشابهه، هي العبارة التي أضفتها إلى عنوان «الكلب»، وتحديداً: «من أُمسياتٍ في منزل السيد ف.». سيُخبرك أنينكوف بنفسه أنّ ظهوري الآن بهذا الهُراء أمام الجمهور سيدلّ على إنهاء كل قرض خاص بي بشكلٍ نهائي. لا يسعُني الآن إلا أن أتعاطف معك، وأنذهل بالشجاعة التي تتولى بها، في عصرنا هذا، العمل الأدبي. وأتمنى لك الصحة والقوة. ولكن ليس ثمّة شيء لدي أكثر من ذلك. صدقني. هذه ليست العبارة التي يقولها المؤلف للمُحرر؛ هذه هي الحقيقة ذاتها التي يُخبرها شخصٌ عاقِلٌ لصديقه المُحترم.

لقد أوصيتُ مكتب البريد الرئيسي في برلين أن يُرسلوا إلي مجلة «العصر». أعتقد أنّني سأكون موجوداً في بطرسبورغ خلال شهر مارس. أتمنى أن أجدك نشيطاً ومُعافى. وإلى أن يتم ذلك، أرجوا أن تقبل فائق حُبّي وإخلاصي الصادقين.

إيفان تورغينيف

20

من دوستويفسكي إلى تورغينيف

بطرسبورغ، 13فبراير 1865

الموقر إيفان سيرغييفيتش

لقد أبلغني ب. أنينكوف قبل أسبوع كي أُرسِل إليك ثلاثمائة روبل باقية في ذمة أخي مقابل روايتك «الأشباح»[1]. وإنّني ليست لدي فكرة عن هذا الدين. ولربما أخبرني أخي عنه حينئذ، ولكن بسبب أنّ ذاكرتي كانت ضعيفة للغاية، فبالطبع قد نسيته. كما أنّ ذلك لم يكن يخصّني مباشرةً

(1) كان ينبغي على ميخائيل ميخائيلوفيتش دوستويفسكي أن يدفع لتورغينيف مقابل رواية «الأشباح» في مارس من عام 1864. وفي رسالة الأخير إلى أنينكوف بتاريخ 12 مارس 1864، نقرأ: «... لقد بقي دوستويفسكي مديناً لي بمبلغ 300 روبل مقابل «الأشباح»... أرِهِ هذه الرسالة وأخبره أنني سأكون ممتناً له كثيراً...».
وفي المرة الثانية، كرر تورغينيف طلبه بشأن إرسال الأموال المستحقة له مقابل «الأشباح» في رسالة أرسلها إلى أنينكوف نفسه بتاريخ 7 فبراير (حسب التقويم الميلادي الغربي «الغريغوري» 1865: «لقد بقيت مجلة «العصر» الروسية مدينةً لي بمبلغ 300 روبل فضية. ألا يستطيع أن يُرسلها لي الآن بلا تأخير... لتبعث لي «العصر» على الفور مبلغ الـ300 روبل هذه...»
وعلى الرغم من الوضع المادي الصعب الذي كانت تمر به مجلة «العصر» ـ وقبل شهر من إفلاسها الكامل ـ أرسل دوستويفسكي مع ذلك مبلغ الـ 300 روبل هذا إلى تورغينيف.

حينها. ويحزّ في نفسي للغاية أنّني لم أكن أعلم بهذا الدين في الصيف: فقد كان لدي بعض المال، ولربما كنت سأرسله إليك على الفور من دون أية مطالبة من حضرتك.

وأخشى أن أكون قد تأخرتُ بذلك الآن كثيراً. ولكن خلال هذه الأيام الثمانية صدر عدد شهر يناير، وعلاوةً على ذلك، كنتُ بالكاد أستطيع الوقوف على قدميّ وأنا عليلٌ، وفي غضون ذلك، كنت أُدير التنفيذ لوحدي تقريباً في المجلة، فقد أجهدتُ في العمل ليلاً ونهاراً على الرغم من المرض. ولن أُخفي عليك أنّ المال كان قليلاً، فقد تأخر اشتراكنا ولم يرتفع إلا بصدور العدد الأول.

وخلال الفترة الأخيرة، من 28 نوفمبر، حينما صدر عدد شهر سبتمبر، إلى 12 يناير (الإصدار الأول لشهر يناير)، تمكنتُ في غضون 75 يوماً من إصدار 5 أعداد، في كل عدد بمعدل 35 ملزمة. هل تتخيل مدى التعب الذي سببه لي ذلك؟ هذا وحده يجعلك تتصور إلى أي شيء قد تحولت؟ أنا نفسي لا أعلم. لقد أصبحتُ آلة من بين الآلات.

والآن سيكون لديّ متسع من الوقت ليس أسبوعين فحسب، بل شهراً بالفعل لإصدار العدد. آمل أن أجعل المجلة ممتعة قدر المُستطاع. ثمّة ديون كثيرة: وستكون الأمور صعبة للغاية، ولكنني سأصمد لمدة عام، وبحلول العام القادم سنقف على أقدامنا بثبات.

لقد كتبتَ لي أنّك فوجئت بشجاعتي لبدء إصدار مجلة في زمننا هذا. ويمكن وصف هذا الزمان بهذه الكلمات: أنّه ليس ثمّة آراء فيه، ولا سيما في الأدب، فالآراء كلها مسموح بها، وكل شيء يعيش جنباً إلى جنب؛ وليس ثمّ رأيٌ مُشترك، ولا إيمان موحد. وحسبما أظن، فأنّ من لديه ما

يقوله (ومن يعتقد على الأقل) أنّه يعرف بماذا يؤمن، هو ذلك الذي يرتكب خطيئة ولا يتكلم. أما بالنسبة للشجاعة، فلِمَ لا نتشجّع حينما يتحدث الجميع عما يشاؤون، في حين يتمتع بحق المواطنة حتى صاحب أشد الآراء همجيةً؟ بالمناسبة، ما الذي ينبغي كتابته عن ذلك؟ تعال ولاحظ أدبنا هنا، وسترى بنفسك.

بالمناسبة، كانت عندنا عدة ظواهر أدبية رائعة في الآونة الأخيرة.

لقد صدر العدد الأول من مجلة «المعاصر» قبل ثلاثة أيام، ونُشِرَت فيه مسرحية أوستروفسكي «قائد الجيش» أو «حلم على نهر الفولغا». لا أعلم ما هذا، ولم أقرأها بعد، فقد كنت مُنشغلاً بالتصحيحات؛ البعض يقولون أنّ هذا أفضل ما كتبه أوستروفسكي، وآخرون لا يعرفون ماذا يقولون.

في ذات الوقت، أُرسلُ إليك حوالة بمبلغ 300 روبل عبر مكتب تحويل غينتسبورغ.

لقد أخبرني أنينكوف أنّك لن تأتي إلينا في القريب العاجل. هل هذا صحيح؟

بالمناسبة: أتساءل لماذا تعتقد أنّ قصتك «الكلب» (التي لم أقرأها) غير مهمّة لدرجة أنّ نشرها الآن يعني إلحاق الضرر بك في الأدب؟ أنّه أمر غريب بالنسبة لي يا إيفان سيرغييفيتش! فهل من المعقول أنّك تضرّ بنفسك حتى وأنّ كان من خلال قصة غير مهمة؟ فما الضير في أن تصدر قصتك قبل الملحمة الكبيرة؟ ومن منّا لم يكتب قصصاً قصيرةً؟

إلى اللقاء.

المخلص لك إلى الأبد

فيودور دوستويفسكي

21

من تورغينيف إلى دوستويفسكي

بادن ـ بادن

شارع شيلر، 277

21 فبراير / 5 مارس، 1865، الأحد.

العزيز فيودور ميخائيلوفيتش

أسارع لإبلاغك أنني استلمت حوالتك المالية بملغ 300 روبل[1] وأشكرك على ذلك. وأنني لم أكن لأضايقك لو لم يكن حفل زفاف ابنتي[2]، بكل تكاليفه المتوقعة وغير المُتوقعة قد أجبرني على دقّ الأبواب كلها. وأتمنى أن هذه الدفعة لم تُضيّق عليك كثيراً.

إن ما أخبرتني به عن أعمالك[3] يُخيفني ببساطة، يُخيف البرجوازي

(1) هذه الحوالة أرسلها دوستويفسكي (وهي ما تبقى من الأجور مقابل قصة «الأشباح» المنشورة في مجلة دوستويفسكي «العصر») إلى تورغينيف سويةً مع رسالة بتاريخ 13 فبراير بحسب التقويم الميلادي الشرقي (اليولياني).

(2) أقيم حفل زفاف ابنة تورغينيف، التي أنجبها من «خياطة البياضات» إيفدوكيا إرمولايفنا إيفانوفا، بولينا، المتزوجة من برويير، في باريس في 13 / 25 فبراير 1865.

(3) انظر ما كتبه دوستويفسكي لتورغينيف عن عمله في إصدار مجلة «العصر» في الرسالة 20 بتاريخ 13فبراير 1865.

الكسول الذي يعيش في بادن. آنني مُتأسفٌ للغاية لأنّ صحتك ليست على ما يُرام: انظر: لا تُرهق نفسك! من الأفضل لك أن تجد مساعداً شاباً ونشيطاً للقسم التنفيذي. وأنّ هذه التكاليف ستؤتي ثمارها بزيادة.

هذا ليس السبب الذي يجعلني أتردد في نشر قصة «الكلب» ـ وأنّ هذا العمل صغير ـ وآنما لأنني، وفقاً لحكم أصدقائي المُشترك لم أفلح في ذلك[1]. ومن الأفضل لي أن ألتزم الصمت خيراً من أن أتحدث بسوء.

من رسائل أنينكوف لاحظت بأنّ الأدب في الآونة الأخيرة بدا وكأنّه قد انتعش؛ فقد أخبرني عن رواية تولستوي وعن دراما أوستروفسكي. آنني أرغب بقراءة كل هذا ولكن، على ما يبدو، سيتعين علي تأجيل ذلك لحين عودتي، والتي لن تتأخر عن 15 ـ 20 أبريل. وقتئذ سأتعرف على مجلّتك.

أتمنى لك كل التوفيق، بدءاً من صحتك، وأشدّ على يديك بودٍّ.

المُخلص لك

إيفان تورغينيف

---

(1) يردّ تورغينيف هنا على كلام دوستويفسكي الآتي: « بالمناسبة: أتساءل لماذا تعتقد أنّ قصتك «الكلب» (التي لم أقرأها) غير مهمّة لدرجة أنّ نشرها الآن يعني إلحاق الضرر بك في الأدب؟ آنه أمر غريب بالنسبة لي يا إيفان سيرغييفيتش! فهل من المعقول أنك تضرّ بنفسك حتى وأنّ كان من خلال قصة غير مهمة؟ فما الضير في أن تصدر قصتك قبل الملحمة الكبيرة؟ ومن منّا لم يكتب قصصاً قصيرة؟».

22

من دوستويفسكي إلى تورغينيف[1]

فيسبادن، 3 / 15 أغسطس، 1865

الطيب العزيز إيفان سيرغييفيتش

عندما التقيت بك في سانت بطرسبورغ منذ حوالي شهر تقريباً، كنت أبيع مؤلفاتي بأي ثمن يدفعونه لي، لأنني كنت على وشك أن يُزجَّ بي في السجن بسبب ديون المجلة التي سجلتُها باسمي من جراء حماقتي. وقد اشترى ستيلوفسكي مؤلفاتي (حق نشرها في عمودين) بثلاثة آلاف روبل، واشترى بعضها بكمبيالات. وهذه الثلاثة آلاف سدّدتُ بعضها للدائنين وأرضيتُهم لبعض الوقت، ووزعتُ الباقي على من أنا مُرغمٌ بالدفع لهم،

---

(1) يُقيّم الباحثون، دون خلو من تأثير دوستويفسكي نفسه، أهمية كبير بحق على تاريخ عدائهما لرسالة دوستويفسكي إلى تورغينيف من فيسبادن الواردة أعلاه. إلا أنّ هذه الرسالة، بالطبع، لم تكن هي السبب الوحيد لعدائهما السافر فيما بعد. ولا ريب في أنّ عدائهما كان عميقاً وجوهرياً، وأساسه يكمن في عقيدتيهما. إن طلب المال، الذي اعتبره دوستويفسكي فيما بعد مُهيناً له بلا أدنى شك، يمكن أن يلعب دور الحجة في الكشف عن هذا العداء، ولكنه ليس سبباً رئيسياً له. بالمناسبة، دعونا ننوّه إلى أنّ قلق دوستويفسكي من الديون غير المسددة لتورغينيف في موعدها المحدد قد لعب دوراً هاماً في قصة هذا العداء نفسه.

ومن ثم سافرت إلى خارج البلاد لكي أستعيد عافيتي ولو بعض الشيء وأكتب شيئاً ما. وقد أبقيت لنفسي من مبلغ الـ 3000 آلاف لأجل الخارج 175 روبلاً فضياً، ولم أتمكّن من أن آخذَ أكثر من ذلك.

ولكن قبل ثلاثة سنوات في فيسبادن[1] ربحت 12000 فرنك في ساعة واحدة. رغم أنني لا أُفكر الآن في تحسين ظروفي عن طريق القمار، إلا أنني أرغب حقاً بربح 1000 فرنك لكي أعيش عليها في هذه الأشهر الثلاثة على الأقل. لقد انقضت خمسة أيام وأنا في فيسبادن، وقد خسرت كل شيء، حتى الإفلاس، فقد خسرت ساعتي، وحتى أنني مدين للفندق.

أشعر بالذنب والخجل في ذات الوقت أنني أُشغلك بنفسي. ولكن، ليس ثمّ من أحد عندي مطلقاً في هذه اللحظة غيرك يمكنني أن ألتجئ إليه، وثانياً، أنت أذكى بكثير من الآخرين، وبالتالي من الأسهل علي أخلاقياً أن ألتجئ إليك. وهنا يكمن بيت القصيد: أنني أتوجه إليك كإنسان لإنسان وأطلب منك مئة تالر. ثم أنني أنتظر من روسيا، من إحدى المجلات «مكتبة القراءة»، حيث وعدوني عند سفري بإرسال نقود قليلة جداً، وكذلك من سيدٍ آخر واجبٌ عليه أن يُساعدني[2]. ومن المُسلّم به أنني لن أُعيد إليك النقود ربما قبل ثلاثة أسابيع، ولعلني أعيدها إليك في وقتٍ مبكّرٍ[3]. على أيّة حال أنني أمكثُ وحيداً، وأنّ في قلبي لوعة (وظننت أنه سيكون أكثر التياعاً)، والأهم من ذلك، هو أنني أشعر بالخجل لإزعاجك، ولكن ما العمل حينما تغرق؟

---

(1) يقصد هنا دوستويفسكي سفره إلى فيسبادن في عام 1863.

(2) المقصود هنا ألكسندر غيرتسين.

(3) لقد نسَي دوستويفسكي هذا الدين ولم يُعِده إلا في عام 1876.

عنواني هو: Wiesbaden, Hotel «Victoria», Mr. Theodore Dostoiewsky.

ما العمل لو أنّك لم تكن موجوداً في بادن ـ بادن؟

المُخلص لك

فيودور دوستويفسكي

* * *

لقد أعلن دوستويفسكي بالتفصيل عن إفلاس المجلة في رسالته إلى البارون أ. ي. فرانغل بتاريخ 14 أبريل 1865: «بسبب نقص الأموال اللازمة لإصدار المجلة لاحقاً، اضطروا إلى إعلان الإفلاس المؤقت، وبالإضافة إلى ذلك، فأنّ علي ديّناً يصل إلى 10000 ورقة نقدية و5000 مقابل كلمة شرف... وفوق هذا، يلزمني 2000 روبل من أجل إعادة شراء حقوق نشر مؤلفاتي المرهونة والشروع في نشرها بنفسي. وقد دفع لي بائعو الكتب 5000 روبل مقابل هذه الحقوق. ولكن ذلك لن يكون مربحاً لي. فإذا قمت بنشرها بنفسي فسيكون ذلك أكثر ربحاً. آه يا صديقي، سأعود مرة أخرى إلى الأعمال المُرهقة بكل سرور بنفس مقدار السنين، فقط لكي أُسدد ديوني وأشعر بالحرية من جديد... أنّ العمل بسبب الحاجة، ومن أجل المال قد أنهكني وأخذ مني مأخذاً...».

في العاشر من شهر مايو، أرسل دوستويفسكي الالتماس الآتي إلى الحاكم العسكري العام لسانت بطرسبورغ من أجل المطالبة بحق إصدار جواز سفر خارجي:

إلى صاحب السمو سيادة الحاكم العسكري العام لسانت بطرسبورغ، القائد المُعاون للأمير الإيطالي، الكونت سوفوروف ريمنيكسكي.

في 16 يونيو 1864، وبتفضلٍ من صاحب السمو الإمبراطور، تمّ إصدار جواز سفر خارجي لي هنا في بطرسبورغ من أجل العلاج من مرضي. وفي غضون ذلك، في 10 يونيو من العام نفسه، توفي شقيقي مما اضطرني للبقاء في بطرسبورغ لكي أطّلع على مجريات الأمور وأُرتّب شؤونه. والآن، نظراً لتدهور صحتي كثيراً، فأنّني أُقدِم مرةً أُخرى إلى سموكم وأطلب تجديد جواز سفري للعام الماضي، والذي لم أتمكن من استخدامه في حينها، والذي أتشرف بتقديمه إلى سموّكم.

الملازم الثاني المُتقاعد

فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي

وقد جاء في أحد قرارات هذا الالتماس: «ليأتِ يوم الأربعاء في الساعة 12»، والقرار الثاني: «إصدار جواز سفر خارجي جديد». ولتسليط المزيد من الضوء على الوضع الذي وقع فيه دوستويفسكي في فيسبادن بعد أنّ «خَسِر كل شيء»، ومن أجل توضيح الأسباب التي دفعته إلى أن يُقدِم على اللجوء إلى تورغينيف بطلبٍ للحصول على المال، فأنّنا نرى أنّه من الضروري الاستشهاد باثنتين من أكثر رسائل دوستويفسكي قيمةً وإثارةً للاهتمام التي أرسلها إلى أبولّيناريا بروكوفيفنا سوسلوفا؛ خليلته المُقربة وشريكة حياته في تلك السنوات. وقد تمّ الاحتفاظ بهاتين الرسالتين في ملّف أوراق سوسلوفا في القسم الثالث للمستشارية الخاصة لصاحب السمو الإمبراطور (قسم لينينغراد

في الأرشيف المركزي حالياً) وما زالتا حتى يومنا هذا معروفتين بشكل قليل لعامة الناس.

* * *

كُتِبَت الرسالة الأولى لدوستويفسكي بعد أسبوع من إرسال رسالته إلى تورغينيف؛ وهذا هو نص الرسالة:

الثلاثاء [22/ 10 أغسطس) 1865. فيسبادن]

عزيزتي بوليا، أولاً وقبل كل شيء، لا أفهم كيف كانت رحلتك. لقد زاد شوقي إليكِ إلى أسوء شوقٍ لنفسي.

حسناً، ماذا لو لم يكن لديكِ ما يكفي من المال في كولونيا وللصف الثالث؟ في هذه الحالة، أنتِ الآن في كولونيا بمفردكِ ولا تعرفين ماذا تفعلين. إنه أمرٌ سيّئ. في كولونيا فندق، وعربات أُجرة تجرها الخيول، وأعمال صيانة في الطرقات. وإن كان لديك ما يكفي من المال للسفر، فأنكِ لا تزالين جائعة. كل هذا ينقر في رأسي ولا يمنحني الطمأنينة. ها قد حل يوم الثلاثاء، والساعة الثانية بعد الظهر، وليس ثمّ من خبر عن غيرتسن، وقد حان الوقت. على أية حال. سأنتظر حتى بعد غد، وبعد ذلك سأفقد الأمل الأخير. على كل حال، ثمّ شيءٌ واحدٌ واضحٌ لي هو: إن لم تكن هناك أخبار من غيرتسن، فهذا يعني أنّه ليس في جنيف أيضاً، أي أنّه ربما ذهب إلى مكانٍ ما. ولذا فأنّني على الأرجح سوف أستنتج أنّني على علاقة طيبة للغاية مع غيرتسن، وبالتالي لا يمكن أن يتواجد لكيلا يردّ علي على أيّة حال، حتى لو لم يكن يرغب أو لم يستطع إرسال المال. إنه مهذب جداً، بل وأنّنا في علاقة صداقة.

إذن، إنّ لم يكن ثمّة أخبار منه، فهذا يعني أنّه ليس في جنيف في الوقت الحالي.

وفي غضون ذلك، قد تدهور وضعي إلى حد الاستحالة. ولقد غادرتِ لتوّكِ، وفي اليوم التالي، في الصباح الباكر، أبلغوني في الفندق أنّهم أمروا أن لا يُقدموا إلي لا الغداء، ولا الشاي، ولا القهوة. فذهبت لأستفسر عن الأمر وأبلغني المالك الألماني البدين بأنّني لا «أستحق» الغداء وأنّه سيُرسل إلي الشاي فقط. ومنذ يوم أمس، لم أتناول العشاء وشربت الشاي فحسب. بل وحتى أنّهم قدموا الشاي إلي بشكلٍ سيّئ للغاية، ولم تكن لدي سيارة، ولا يقومون بتنظيف ملابسي وأحذيتي، ولا يردّون على مكالماتي، ويُعاملني الخدم جميعهم بازدراء ألماني لا يوصف. وليس ثمّ من جُرم أرفعَ لدى الألماني من أن يكون بلا مال، وأن لا يدفع في الوقت المحدد. وسيكون هذا الأمر مضحكاً، لكنه مع ذلك غير لائق للغاية. ولذا، إن لم يُرسل غيرتسن المال، فأنّني أتوقع أن تحدث لي متاعب جمة، ألا وهي: قد يُصادرون أشيائي ويطردونني، أو حتى ممكن أن يكون أسوء من ذلك. يا له من أمر مُقرف.

إن كنتِ قد وصلتِ إلى باريس واستطَعتِ الحصول بطريقةٍ ما على أي شيء حتى ولو من أصدقائك ومعارفك، فأرسلي لي 150 غيلدراً كحدّ أقصى، وبقدر ما تشائين كحدٍّ أدنى. وإنّ أرسلتِ 150 غيلدراً، فأنّني سأتخلص من هؤلاء الخنازير وأنتقل إلى فندقٍ آخر تحسّباً للمال. لأنّه من غير الممكن أن لا أحصل عليه قريباً، وعلى أية حال سأعطيكِ إياه قبل وقتٍ طويل من مغادرتك فرنسا. أولاً، من المحتمل أن يُرسلوه من بطرسبورغ (من مكتبة القراءة) بمدة أقصاها 10 أيام

باسم أختكِ التي تُقيم في زيورخ، ثانياً، حتى وأنّ لم يكن غيرتسن موجوداً في جنيف، فأنّهم [سيُعاودون إرساله إليه] على أية حال إن كان قد غادر جنيف لأمد طويل، ومن ثم يُرسلون إليه رسائل باسمه إلى جنيف. أما إن كان قد غادر لفترةٍ قصيرة، فهذا يعني أنّه سيُجيب الآن بعد أن عاد، وبالتالي، فأنّني على أي حال سأتلقى منه رداً في القريب العاجل. باختصار، إنّ كنتِ تستطيعين أن تفعلي شيئاً من أجلي، ولكن دون أن تُرهقي نفسكِ كثيراً، فافعلي ذلك. عنواني هو نفسه: Wiesbaden, Hôtel Victoria..

إلى اللقاء يا عزيزتي، لا أُصدق أنّني لم أركِ قبل رحيلك. لا أريد أن أُفكر حتى في نفسي، أنّني أجلس وأقرأ كل شيء حتى لا تُثير الحركة شهيتي. أُعانقكِ بشدة.

أستحلفكِ بالله ألا تُرِي رسالتي هذه لأي أحد ولا تُخبري أحداً بها. يا له من أمر مُقرف. المخلص لك فيودور ميخائيلوفيتش.

صِفِي لي رحلتك بالتفصيل في حالة وجود أيّة مشاكل. أبلِغي تحياتي لشقيقتكِ.

إذا أرسل إلي غيرتسن (المال) قبل رسالتك، فعند مغادرتي فيسبادن، على أية حال، سأُوصي بإرسال رسالتك إلي في باريس، لأنّني سأُسافر إلى هناك فوراً.

***

كتب ف. م. دوستويفسكي رسالته الثانية إلى أ. ب. سوسلوفا بعد يومين من كتابته الرسالة الأولى. وهذا هو نصّها:

الخميس [24 / 12 أغسطس 1865. فيسبادن]

آنني أُواصل إمطاركِ بالرسائل (وجمعيها غير مدفوعة رسومها بالبريد). فهل وصلتكِ رسالتي التي أرسلتُها إليكِ في يوم الثلاثاء؟ وهل وصلتِ أنتِ إلى باريس؟ آمل أن أحصل على خبرٍ منكِ اليوم.

إن أحوالي سيئة للغاية؛ ولا يمكن المضيّ قدماً. بالإضافة إلى أنّ ثمّة فترة أخرى من المحن والشدائد التي لا أعلم عنها شيئاً الآن. لم أتلقَّ من غيرتسن أي شيء بعد، ولا جواب أو ردّ. يمر اليوم أسبوعاً كاملاً بالضبط منذ أن كتبت إليه رسالة. واليوم هو الموعد النهائي الذي حددتُه لصاحب الفندق في يوم الإثنين من أجل استلام المال. ولا أدري ماذا سيحدث. إنها الساعة الواحدة صباحاً حالياً.

من المَستحيل أنّ غيرتسن لا يرغب بالرد عليّ! أمن المعقول آنه لا يُريد الردّ عليّ؟ هذا أمر مُستحيل. فَعَلام لا يرغب بالردّ؟ آننا تربطنا علاقةٌ رائعة جداً، وقد كنتِ أنتِ شاهدة عليها. إلّا إذا كان هناك أحد قد نمَّ عليّ أمامه؟ ولكن حتى في هذه الحالة، فمن المستحيل (بل أكثر من هذه الاستحالة) ألّا يردّ على رسالتي. لذا، فآنني ما زلت على يقين، في الوقت الحالي، بأنّ رسالتي إليه إما أن تكون قد ضاعت (وهذا أمرٌ غير قابل للتصديق)، أو آنه، ولسوء حظي، قد غادر جنيف. وهذا الاحتمال الأقرب. وفي هذه الحالة ينبغي أن يحدث ما يلي: إما 1) آنه غادر لفترة قصيرة، وفي هذه الحالة لا يزال لدي أمل بإمكانية الحصول على ردٍّ منه في القريب العاجل (عند عودته). أو 2) آنه قد سافر لفترةٍ طويلة، وفي هذه الحالة، من المُرجح أن يُرسِلوا إليه أينما حلّ، لأنّه على الأغلب يكون قد أوصى بإرسال الرسائل التي تصله باسمه إليه. وبالتالي يُمكنني مرة أخرى أن آمل بالحصول على رد منه.

سأظل طوال الأسبوع، وحتى يوم الأحد مُتأملاً الحصول على ردٍ منه، إلّا أنّ ذلك بالطبع مجرّد أمل. ولكن وضعي هو أنّ الأمل لا يكفيه وحده الآن.

بيد أن ذلك كله لا يُقارن بشدة اكتئابي. وأنّ التقاعس عن العمل يُعذّبني، وغموض التوقع والانتظار بلا أمل كبير، وضياع الوقت وفيسبادن اللعينة التي أشعرتني بالاشمئزاز منها لدرجة أنّني لم أعد أرغب برؤية ما في الدنيا. والحال أنّكِ في باريس ولن أراك! كما أنّ غيرتسن ما زال يُعذّبني. فلو أنّه قد تلقى رسالتي ولا يرغب بالردّ عليَّ، فيا لها من إهانة ويا له من تصرف! فهل أستحق مثل هذا التعامل؟ وبأي ذنب؟ ألِقلّة تهذبي وأخلاقي؟ أتّفق على أنّني كنت غير مهذبٍ، ولكن يا لها من أخلاقيات برجوازية! أجبني على الأقل يا غيرتسن، أم أنّني «لا أستحق» المساعدة (كما هو الحال لدى صاحب الفندق). ولكن من غير الممكن ألّا يرد علي. من المُرجح أنّه غير موجود في جنيف.

كنت قد طلبتُ منكِ مساعدتي إن كان بإمكانكِ أن تستديني لي من شخصٍ ما. وأنّني لست مُتأملاً في ذلك يا بوليا. ولكن إذا كنت تستطيعين، فافعلي ذلك من أجلي! ألا تتفقين معي أنّه من الصعب أن نجِد وضعاً أكثر شقاءً وصعوبةً من الوضع الذي أنا فيه الآن؟

ستكون هذه رسالتي الأخيرة إليكِ حتى أحصل على خبر ما منكِ على الأقل. ويتراءى لي طوال الوقت أنّ الرسائل إلى Hôtel Fleurus تتأخّر طويلاً أو تضيع إن لم تكوني موجودة هناك بنفسك. أنّني لا أدفع رسوم بريد الرسائل مُقدّماً لأنّني لا أملك كوبيكاً واحداً. وما زلت أواصل عدم تناول العشاء وأعيش على شاي الصباح والمساء لليوم الثالث. والأمر

الغريب هو أنني لا أرغب بتناول الطعام كثيراً. والشيء السيّئ هو أنهم يُضايقونني وأحياناً يحرمونني من شمعة المساء، [وخصوصاً] إذا كانت هناك بقية ضئيلة من شمعة الأمس. بالمناسبة، أنني أُغادر الفندق في الساعة الثالثة وأعود في الساعة السادسة لكيلا أتظاهر بأنني لا أتناول طعام الغذاء إطلاقاً. يا لها من خليستاكوفيّة[1]!

صحيحٌ أنه ثمّة بصيص أمل بأنني بعد أسبوع، أو عشرة أيام على الأكثر، سأتلقى شيئاً من روسيا (عن طريق زيورخ). ولكن حتى ذلك الحين، لن أكون على ما يُرام بلا مساعدة.

بالمناسبة، إنّي لا أُريد أن أُصدق أنني لن أكون في باريس ولن أراكِ قبل مُغادرتي. هذا أمر غير ممكن. مع ذلك، فأنّ التصورات تثور بسبب التقاعس عن العمل. ثم أنّ تقاعسي كاملٌ.

وداعاً يا عزيزتي. إنّ لم تحدث أمور طارئة أو مُغامرات تستحق الذكر، فأنني لن أكتب أكثر. إلى اللقاء.

المخلص لكِ

فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أُعانقك مرةً أخرى بقوةٍ. هل وصلت أختكِ ناديجدا بروكوفيفنا؟ ومتى؟ أوصِلي تحياتي لها.

***

(1) خليستاكوف هو الشخصية المحورية في مسرحية (المفتش العام) لغوغول. (المترجم).

الساعة الرابعة.

صديقتي العزيزة بوليا، تلقّيت في هذا اللحظة تحديداً رداً من غيرتسن. لقد كان في الجبال ولهذا السبب تأخرت رسالته. لم يُرسل إليّ نقوداً؛ يقول إن رسالتي وصلته في اللحظة التي كان لا يملك نقوداً فيها، وإنه لا يستطيع أن يبعث إلي 400 فلورين، ولكن إن كانت الـ100غيلدر أو 150 غيلدراً تكفي، فهذه مسألة أخرى، وأنّه سيُرسلها إليّ. وسيرجو مني في المُقابل أن لا آخذ على خاطري وما إلى ذلك. إلا أنّ الأمر الغريب هو: لِمَ لم يُرسل الـ150 غيلدراً؟ طالما قال إنّه يستطيع إرسالها. ويقول إنّه لن يستطيع أن يُرسل أكثر منها. هكذا يُفعل الأمر. والأمر واضح هنا: إما أنّ الحال تضيق به هو نفسه، أو أنّه يتحسّف على إرسال المال. وفي الحقيقة لم يكن ليستطيع أن يشك في أنني لن أُعيد النقود إليه، فإن رسالتي لديه. وأنني لست شخصاً لا أمل فيه. من المؤكد أنّ الحال تضيق به.

حسبما أظن، من غير الممكن أن أُرسل له رسالة أخرى وأطلب منه أكثر! فما العمل إذن الآن؟ يا صديقتي بوليا، أُناشدكِ العون، أنقذيني! احصلي على 150 غيلدراً من أي أحدٍ، هذا كل ما أحتاجه. وفي غضون 10 أيام أو ربما أقل ستصلك النقود من فوسكوبوينيكوف إلى زيورخ على عنوان أختكِ. وعلى الرغم من أنّ المبلغ ليس كبيراً، إلا أنّه ليس أقل من 150 غيلدراً وسأُعيدها إليكِ. وأنني لا أُريد أن أضعك في موقفٍ مُحرج. إطلاقاً. تشاوري مع شقيقتكِ. ولكن أجيبيني في القريب العاجل على أيّة حال.

المخلص لكِ

فيودور دوستويفسكي

إنني الآن لا أعرف ما سيحصل لي على الإطلاق.

***

لقد ظلَّ وضع دوستويفسكي في فيسبادن فاجعاً لأكثر من أسبوعين. وفي 5 سبتمبر من التقويم الميلادي الغربي (الغريغوري) كتب رسالة يائسة إلى صديقه السيبيري أ. إي. فرانغل قائلاً: «أنقذني! أخرجني من محنتي هذه! ابعث لي 100 تالرٍ ديناً لأقصر مدّةٍ». أرسل دوستويفسكي رسالة أخرى في 10 سبتمبر دون أن ينتظر الرد: «... كنتُ قد كتبت إليك رسالتين لم أتلق رداً عليهما... لقد كتبت إليك وطلبت منك أن تبعثَ إليَّ100 تالرٍ. أنّ هذه النقود لن تُساعدني بصورةٍ جذريةٍ بعد الآن، لكنها على الأقل ستُفرّج عني في محنتي كثيراً وتنقذني من الخِزي. لذا، إن كنت تستطيع مساعدتي، وإن كنت لا تزال نفسك صديقي العزيز القديم، فاصنع معروفاً لي في هذه الـ100 تالر».

23 ـ 24

من تورغينيف إلى دوستويفسكي ووصل استلام تورغينيف

شكراً لك أيها الطيب إيفان سيرغييفيتش على إرسالك 50 تالراً. ولو أنها لم تساعدني بشكل جذري، إلا أنها ساعدتني كثيراً. آمل أن أُعيدها إليك قريباً. أشكرك على اقتراحاتك، ولكن تنفيذها صعبٌ بالنسبة لي. وعلاوةً على ذلك، فقد أُصبت بنزلة برد، وقد كنت لا أزال في عربة القطار قادماً من برلين، وأنا أشعر كل يوم بالحمّى. على أية حال، أتمنى أن أراك قريباً جداً. وحتى ذلك الحين، أُصافحك بصدق وأبقى...

المخلص لكِ
فيودور دوستويفسكي
8 /20 أغسطس
[1865، فيسبادن]

لقد استلمت الـ 50 تالراً التي أعطيتها لدوستويفسكي.

إيفان تورغينيف
باريس
[مارس، 1876]

***

لا شك في أنّ رسالة دوستويفسكي هذه قد أُرِّخت على نحوٍ خاطئ لعام 1863 من قِبل ن. ك. بيسكانوف (بالإضافة إلى تاريخ اقتراض المال من قِبل عدد من الباحثين الآخرين. يو. أ. نيكولسكي، ف. ي. تشيخين).

تحتوي «مُذكرات أ. غ. دوستويفسكايا»، التي نشرتها دار النشر الحكومية في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية بتحرير ل. ب. غروسمان على فصل بعنوان «دينٌ إلى تورغينيف»؛ ويُحكى فيها عن الخِلافات المالية المُتواصلة بين دوستويفسكي وتورغينيف، ويتم الاستشهاد بفصلٍ كامل من إعادة رسالة دوستويفسكي هذه من قِبل تورغينيف مع ملحق حول استلام خمسين تالر.

كتبت أ. غ. دوستويفسكايا: «أستذكرُ من حياتنا في عام 1876 إحدى الخلافات الصغيرة التي كانت قد أثارت حفيظة زوجي، الذي أُصيب بنوبة صرع قبل يومين أو ثلاثة أيام. فقد جاء لرؤية فيودور ميخائيلوفيتش الشابُّ ألكسندر فيدوروفيتش أوتو (أونيغن)، الذي كان يعيش في باريس، والذي جمع فيما بعد مجموعة قيمة من كتب ووثائق بوشكين. فأخبر أوتو بأنّ صديقه إيفان تورغينيف، قد أمره بزيارة فيودور ميخائيلوفيتش واستلام النقود التي بذمته. ففوجئ زوجي وسأل عما إذا كان تورغينيف قد استلم من ب. ف. أنينكوف الخمسين تالر تلك التي أعطاها لأنينكوف لتحويلها إلى تورغينيف في شهر يوليو من العام المُنقضي، عندما قابله في القطار أثناء توجهه إلى روسيا؟ فأكّد أوتو استلامه نقوداً من أنينكوف، لكنه قال أنّ تورغينيف ذكر أنّه لم يُرسل إلى فيودور ميخائيلوفيتش في فيسبادن خمسين تالراً، بل مائة تالر، ولهذا السبب يعتقد أنّ فيودور ميخائيلوفيتش

لا يزال مديناً له بخمسين تالراً. فاهتاج زوجي غضباً مُعتقداً أنّه خطؤه، واستدعاني على الفور وسألني، بعد أن قدم لي الضيف:

- قولي لي يا آنيا، كم أدين لتورغينيف؟

- خمسون تالراً.

- أهذا صحيح؟ هل تتذكرين جيداً؟ ألستِ على خطأ؟

- أنّني أتذكر بشكل ممتاز؟ لأنّ تورغينيف قد أشار تحديداً في رسالته إلى المبلغ الذي كان قد أرسله إليك.

- أَرِيني الرسالة، أهي عندك؟

بالطبع لم تكن الرسالة عندي، لكنني وعدته بالعثور عليها، فطلبنا من الشاب أن يُعرِّجَ علينا في غضون يومين.

كان فيودور ميخائيلوفيتش مُتكدراً جداً من خطأ محتمل من جانبي وكان قلقاً للغاية لدرجة أنّني قررت أن أسهر ولو حتى طوال الليل، على أنّ أجد الرسالة. لقد انتقل قلق زوجي إليّ، وبدأت أتساءل عما إذا كان ثمّة خلاف ما قد حدث في هذه الحالة. ولسوء الحظ، كانت رسائل زوجي في السنوات السابقة غير مُنظّمة، وكان يتوجب عليّ مراجعة ما لا يقل عن 300 ـ 400 رسالة، لحين عثوري في نهاية المطاف على رسالة تورغينيف صدفة. فهدأ زوجي بعد أن قرأ الرسالة وتأكد من أنّ الخطأ لم يحدث من جانبنا.

وحينما جاء أوتو بعد يومين، أريناه رسالة تورغينيف. فشعر بإحراجٍ شديد وطلب منه أن يعطيه هذه الرسالة لكي يتمكن من إرسالها إلى تورغينيف، حيث وعدنا بإعادتها إلينا.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع، جاء إلينا أوتو من جديد وأحضر لنا الرسالة، ولكن لم تكن الرسالة التي أعطيناه إياها، وإنما رسالة فيودور ميخائيلوفيتش نفسه من فيسبادن، والتي طلب فيها من تورغينيف إقراضه 50 تالراً. وبالتالي، فقد توصلَ الخلاف إلى شعورنا بالارتياح...».

ولكن، بما أنّ أونيغن كان «مُحرجاً» للغاية، فأنّ نتيجة ذلك الأمر هي رسالته «القاسية الاتهامية» إلى تورغينيف، والتي، للأسف، لم يتمّ الاحتفاظ بها. لكن ردّ تورغينيف كان مُثيراً جداً للاهتمام. وقد تم الاحتفاظ به في أرشيف أ. ف. أونيغن نفسه ونُشِرَتْ مؤخراً. وفيما يلي نصه بالكامل:

باريس، رقم 9 شارع دواي
2 / 14 مارس 1876

بعد أن تلقيتُ رسالتك، يا ألكساندر فيدوروفيتش، بحثتُ في جميع رسائلي فوجدت أخيراً الرسالة المرفقة من السيد دوستويفسكي، والتي يمكن أن أقتنع من خلالها أنني قد أقرضته ليس 100 تالر كما اعتقدت، وأنما 50. أتوسل إليك بكل تواضع أن توصل إليه هذه الرسالة مع وصل استلام مكتوب عليها بدلاً من وصل الاستلام ذاك، الذي أرسلته إليه عبر وساطتك.

لن أخفي عنك أنّك قد أهنتني بشدة، وأنّني لا أريد أن أستذكر ذلك بأي شكلٍ من الأشكال. ولم يُخامرك الشك في اتهامي بإهانةٍ مُتعمدةٍ من قِبل رجلٍ ثري لرجل فقير! أنّك تقول عن استبدادك: يمكنني أنّ أتوقع منك أن تُبيّن لي صداقتك. أو أنّكَ اعتبرتني قادراً على القيام ليس بمثل هذه «التفاهة»، كما تقول، وأنّما «بالسفالة». وينبغي عليك في مثل هذه الحالة

إلّا تتردد، وأنّما ترفض طلبي ببساطة، أو يمكنك أن تفترض أنّ ذاكرتي قد خانتني، وأنّني كنتُ مخطئاً في المبلغ (إن لم يكن حقاً كذلك). وكيف لم تُنبهني حينها، ولم تقل لي لكي أتحقق من أوراقي؟ وأنّك بدلاً من ذلك، وبعد التردّد المُهين لي، لم يُخامرك الشك في إلقاء الإهانة إلي في وجهي (لا يسعني إلا أن آمل بألا تكون قد أدركت كل قوتها). وبعد أن فكرتُ ملياً في كمية المشاعر السيئة والمُحتقرة التي نسبتها إليّ، فلا تتفاجأ إذا طلبت منك ـ بعد استيفاء طلبي الأخير ـ وتحديداً تبادل وإرسال وصل استلامي، أن تنسى بأنّني موجود.

إيفان تورغينيف

ملاحظة: لقد طلبتُ من م. م. ستاسيوليفيتش أن يوصل إليك نيابة عني المائة روبل التي كنت قد دفعتها إليّ.

***

في نفس الفصل من مذكرات أ. غ. دوستويفسكايا «دَين إلى تورغينيف»، تم الاستشهاد بمقتطف من رسالة أ. ف. أونيغن الأخيرة إليها:

كتبت أ. غ. دوستويفسكايا: لم يُعانِ [في هذه القصة] سوى أ. ف. أوتو، الذي كتب في رسالته، بعد عشر سنوات (19 ديسمبر 1888)، مُذكّراً بنفسه:

«لقد كانت معرفتي القليلة بفيودور ميخائيلوفيتش مبنية على خلافٍ مُزعج له، والذي لعبت فيه دوراً لا إرادياً. أنّني ذلك الشخص الذي أقبلَ عليكما منذ زمنٍ بعيد للغاية، عندما كنتما لا تزالان تعيشان في بيسكي. فقد أقبلتُ عليكما في لحظةٍ مادية صعبة، ومُتفاقمة في ذلك الحين بسبب مرض فيودور ميخائيلوفيتش، وبتكليفٍ من صديقي إيفان تورغينيف،

لكي أستحصل نقوده؛ ديون فيودور دوستويفسكي. لقد مررت بلحظاتٍ عصيبة آنذاك، إذ أنّكِ أوضحتِ إلي بثقةٍ الوضعَ العام للأمور، ثم أثبت فيودور ميخائيلوفيتش، عندما كان مُضطرباً وغاضباً، أنّ طلب إيفان سيرغييفيتش كان أشد ظلماً. وفي خضم قسوة حزني، كتبت بعد ذلك رسالةً شديدة اللهجة إلى إيفان سيرغييفيتش. فاستبان الأمر: فقد اعترف إيفان سيرغييفيتش بغلطته، لكنني كنت على وشك أن أفقد صداقته، كما يحدث دائماً مع شخصٍ ثالثٍ متورطٍ بين شخصين آخرين».

بناءً على المواد المنشورة مؤخراً لسيرة حياة تورغينيف، فأنّ العلاقة بينه وبين أ. ف. أونيغن لم تنتهِ بعد تبادل هذا النوع من الرسائل وقد استمرت بنفس الروح.

25

من تورغينيف إلى دوستويفسكي[1]

باريس 50 شارع دواي

الإثنين، 28 مارس / 9 أبريل، 1877

سيدي الكريم فيودور ميخائيلوفيتش!

إن صديقي العزيز، وهو أديبٌ معروف وخبيرٌ باللغة الروسية، السيد إميل دوراند، تلقى تكليفاً من هيئة تحرير مجلة «Revue des Deux Mondes» لتأليف دراستين علميتين (سيرة ذاتية ونقدية أدبية) «مونوغرافيا» عن المُمثلين الرواد للأدب الروسي، ولهذا الغرض سافر إلى روسيا. وأنك، بالطبع، ستقف في هذه الحالة في الطليعة. وقد طلب مني تزويده برسائل

(1) من أجل وصف علاقة تورغينيف بدوستويفسكي، يجب أن تكون هذه الرسالة، بلا أدنى شك، ذات أهمية كبيرة. هل كانت هذه الرسالة محاولة لإعادة العلاقة مع دوستويفسكي؟ أليست رعاية المترجم دوراند مجرد ذريعة لتجديد المراسلات مع فيودور ميخائيلوفيتش؟ ليس معروفاً ما إذا كان دوستويفسكي قد ردّ على هذه الرسالة، وما إذا كان قد اتخذ خطوات نحو المصالحة مع تورغينيف. غير معروف. ومن المُثير للاهتمام أن نُشير إلى أنه بعد مرور عام، في أبريل 1878، كتب ل. ن. تولستوي، الذي كان في فترة انقطاع مع تورغينيف لمدة 17 عاماً، رسالة صُلح، والتي أجاب عليه بسرعة وبسرور شديدين.

توصية إليك، وهو ما أُنفذه بحرصٍ كبير على التعارف الشخصي مع السيد دوراند، بصفته شخصاً نزيهاً جداً ومُتعلماً وحاذقاً، ومن غير الممكن أن لا نمنحك شعوراً بارتياحٍ كبير.

لقد قررت أن أكتب إليكَ هذه الرسالة بالرغم من الخلاف الذي نشأ بيننا، والذي نتج عنه انتهاء علاقتنا الشخصية. وأنا مُتأكّدٌ من أنّك لا تشكّ في أنّ خلافنا هذا لن يكون له أي تأثير على رأيي في موهبتك الفذة وفي مكانتك الرفيعة التي تحتلّها بحقٍ في أدبنا.

وأنّني أطلب منك، على أمل حفاوة الاستقبال التي ستُقدمها للسيد دوراند وتعاطفك تجاه الغرض من رحلته، أن تتقبل فائق احترامي، والذي يُشرفني أن أبقى بها

خادمك المُطيع

إيفان تورغينيف

لقاء دوستويفسكي مع تورغينيف في بادن عام 1867

إي. س. زيلبيرشتين

في 28 يونيو من عام 1867، في بادن، زار دوستويفسكي تورغينيف، و«جلس معه لمدة ساعة ونصف». وقد أفضى هذا اللقاء بعلاقتهما إلى فراقٍ نهائي، ومنذ ذلك الحين تحديداً أصبحت علاقتهما علاقة عِداء بشكل علني.

ولا يزال حتى الآن تاريخ أدبنا يفتقر إلى ملخّص وقائعي شامل لجميع المواد والوثائق التي وصلت إلينا والتي تصور هذه الحادثة والوقائع الناتجة عنها مباشرة.

وبصرف النظر تماماً عن تلك العوامل الاجتماعية العميقة التي كان لها على مدى سنوات عديدة تأثير سلبي على علاقتهما، والتي في نهاية المطاف، أجهضت المساعي نهائياً، ومن دون الانخراط في تحليل نفسي للعِداء الشهير، شرعنا في تقديم، بقدر الإمكان، ملخصاً شاملاً للبيانات الواقعية التي ترسم نقطة التحول في العلاقة بين دوستويفسكي وتورغينيف في لقائهما ببادن في شقة تورغينيف.

إي. س. زيلبيرشتين

1

لا ريب في أنّ الانفعالات الشخصية لدوستويفسكي وتورغينيف، والتي تفاقمت بسبب عدد من الأحداث في حياتهما في ذلك الحين، قد لعبت دوراً حاسماً في فراقها في بادن. لذلك لنحاول بإيجاز تتبّع الحقائق التي تحدّد الحالة النفسية لكل منهما منذ وقت سفرهما إلى الخارج.

خلال شهر أبريل من عام 1867، ارتحل دوستويفسكي وتورغينيف من سانت بطرسبورغ إلى مدن مختلفة في ألمانيا. في 4 أبريل، غادر تورغينيف إلى مدينة بادن، وفي 14 منه، غادر دوستويفسكي مع زوجته الصغيرة، آنّا غريغورييفنا، إلى دريسدن عبر برلين. وعندما نتصفح في مختلف المذكرات ومصادر الرسائل، التي تشهد على الحالة المعنويّة لكل منهما على مدى أكثر من شهرين انقضيا منذ حين مغادرتهما للخارج إلى حد لقائهما في بادن؛ فيجب علينا أن نتعمق في الحقائق الآتية.

وثمّة حدثان يُعدّان الأكثر لفتاً للنظر في حياة تورغينيف الخارجية خلال فترة الشهرين هذه، هما: لقاء في محطة قطار بادن مع الجالية الروسية لألكسندر الثاني، الذي كان مُسافراً إلى روسيا بعد تعرضه لمحاول اغتيال في باريس (في 31 مايو)، وبعد ذلك تواجد إيفان سيرغييفيتش لأسبوع (4 ـ 12 يونيو) في المعرض العالمي في باريس. وعندما كان يعود إلى بادن، كان عادة ما يقضي إيفان سيرغييفيتش وقته مع ف. ب. بوتكين، ي.

م. فيوكتيستوف، د. أ. كورساكوف، ن. أ. ميليوتين ون. ف. خانيكوف، الذين كانوا يقطنون هناك، بالإضافة إلى إي. أ. غونتشاروف، الذي وصل إلى بادن في 19 يونيو. أنّ نمط الحياة اليومية العادية للرجل العلماني، «برجوازي بادن الكسول»، كما كان يُسمّي نفسه، لم تطغِ، بالطبع، على تورغينيف تماماً. فقد كان نشاطه الأدبي مُعتماً تماماً بالفشل الفاضح لرواية «الدخان» في ذلك الحين. وأنّ ما أزعج تورغينيف بشدة هو سيلٌ كامل من رسائل أصدقائه تحتوي على انطباعات سلبية عن رواية «الدخان»، فضلاً عن المقالات النقدية اللاذعة في الصحافة الروسية عن هذا العمل الأدبي. «يبدو لي أنّه لم يُوبّخَ قطّ أحدٌ من قبل بالإجماع مثلما وُبِّختُ أنا لقاء رواية «الدخان». وأخذت الحجارة تتطاير من كافة الاتجاهات»، كتب تورغينيف في تلك الأيام. والحقيقة أنّ بيسيمسكي، وتيوتشيف، وغيرتسن، وفيت، وبوتكين، كلهم أخبروا المؤلف عن فشل رواية «الدخان». لا سيما أنّ فخر تورغينيف في التأليف قد تضرر في تلك الأشهر وأنّه أعتبر رواية «الدخان» على أنها «العمل الفني الوحيد المعقول والمفيد الذي كتبه». فتحددت الحالة النفسية لتورغينيف بهذه الحقائق في أيام لقائه مع دوستويفسكي.

وقد تحدّدت الحالة المعنوية لدوستويفسكي في نفس الأشهر بعدة عوامل مُعقدة. وسرعان ما تحولت حياته الرتيبة في دريسدن إلى حد ما مع آنّا غريغورييفنا بسيطة النفس؛ إلى عبء على فيودور ميخائيلوفيتش. ونادراً ما كان هدوؤه الروحي يتعكّر برسائل أبولّيناريا سوسلوفا، صديقته الأخيرة، التي رفضت بقسوةٍ شعوره الرائع. لقد وصلت إلينا إحدى رسائل الكاتب الجوابية إلى أ. ب. سوسلوفا، التي كُتِبت في 23 أبريل من دريسدن، وبعد فترة وجيزة من وصوله إلى هناك مع آنّا غريغورييفنا، حيث تحدث

بالتفصيل إلى «صديقه الأبدي» عن شؤونه الأدبية؛ ومما يجدر الإشارة إليه أنّ دوستويفسكي يفضل التزام الصمت بشأن حياته الشخصية في هذه الرسالة. ولم يكن بوسع دوستويفسكي أن يتحمل هذه الحياة الرتيبة مع آنّا غريغورييفنا لفترة طويلة. وفي 4 مايو، بعد أن تركها في دريسدن، غادر إلى مدينة هامبورغ، حيث انهمك بشغفه القديم؛ لعب الروليت. وعندئذ، حطم اللعب المتواصل لمدة اثني عشر يوماً أعصابه. وقد خسر أمواله نقداً، ورهن ساعته، بل أنّه أضطر للحصول على المال من آنّا غريغورييفنا من أجل رحلته. وعند عودته إلى دريسدن في 15 مايو، ظلَّ مُتأثراً طوال الوقت بتلك الخسارة. وفي 22 يونيو وصل دوستويفسكي مع آنّا غريغورييفنا إلى بادن. وسرعان ما اختلّت حالته المعنوية هناك بسبب شغفهِ الذي استولى عليه من جديد. فأصبحت خساراته في الروليت شبه يومية، وقد استنفد أمواله النقدية، وكان من الممكن توقّع عودة نوبات الصرع إليه في أي يوم.

هذه هي الحالة التي كان يمر فيها دوستويفسكي قبل لقائه بتورغينيف مباشرةً. إلا أنّ دوستويفسكي نفسه قد عبرَ عن حالته النفسية ببهاءٍ مذهلٍ في وثيقةٍ رائعة في رسالته إلى الشاعر أ. ن. مايكوف، نوردها أدناه.

2

لقد رأى تورغينيف دوستويفسكي لأول مرةٍ في بادن في الكازينو يلعب الروليت. إليكم ما هو مُدوّن في يوميات آنّا غريغورييفنا بتاريخ 25 يونيو 1867: «أثناء عودتنا إلى المنزل قادمين من الكازينو، حيث كان دوستويفسكي قد خسر مُجدداً، قابل فيودور غونتشاروف في طريقه، والذي عرَّفني عليه. فأخبرني غونتشاروف أن تورغينيف قد التقى بفيديا (دوستويفسكي)، ولكنه لم يدنُ إليه، لأنّه يعلم أنّ اللاعبين لا يحبون الاقتراب منهم. وبما أنّ فيديا مدين لتورغينيف بملغ 50 روبلاً، فيجدر به حتماً أن يذهب إليه، وإلا فأنّ تورغينيف سيعتقد أنّ فيديا لا يريد المجيء إليه خوفاً من أنّه سيطلب منه نقوده. لذلك، أراد فيديا أن يذهب إلى تورغينيف في الغد».

وفي اليوم التالي، كتبت آنّا غريغورييفنا في يومياتها: «لقد أخذ فيديا خمسة عشر تالراً وذهب للّعب. فذهب في البداية إلى تورغينيف، لكنه لم يجده، فقد كان الأخير يتواجد في منزله حتى الساعة الثانية عشرة بعد الظهر فقط. فخسِر فيديا الخمسة عشر تالراً وعاد إلى المنزل».

وفي 27 يونيو، كتبت آنّا غريغورييفنا: «أراد فيديا صباح اليوم الذهاب إلى منزل تورغينيف، لكنه استغرق وقتاً طويلاً في الاستيقاظ، الأمر الذي جعله يتأخر ويؤجل زيارته إليه. وكانت لدينا مُجدداً اثنتي عشرة قطعة

ذهبية. فأخذ فيديا 5 قطع وذهب لِلعب الروليت. وعندما غادر، شعرت بحزنٍ شديد. وكنت مُدركةً تماماً أنّه سيخسر بالتأكيد وسيتعذب مرة أخرى؛ فبدأتُ أبكي بشدة. وقد تحقّقت مخاوفي: عاد فيديا إلى المنزل ويعتريه يأسٌ فظيع. فقال لي إنّه قد خسر كل شيء، وبدأ يطلب مني أن أُعطيه قطعتين ذهبيتين أخريين، قائلاً إنه في حاجة ماسة إلى الفوز حتماً، وإنّه بحاجة إلى ذلك بالتأكيد، وإلا فإنه لا يستطيع ذلك. فركع أمامي على ركبتيه وتوسل إلي أن أُعطيه قطعتين ذهبيتين». لقد استشهدنا عن قصد بهذا المُقتطف الواسع من أجل وصف حالته بكلمات الشخص الوحيد المُقرب من دوستويفسكي آنذاك.

في يوم الأربعاء، 28 يونيو، كتبت آنّا غريغورييفنا في وقتٍ مُبكر من ذلك اليوم: «كنا اليوم سارحين في خيالنا في الساعة العاشرة. ذهب فيديا إلى تورغينيف، حيث جلس عنده لمدة ساعة ونصف». وفي مساء ذات اليوم، كتبت آنّا غريغورييفنا:

«حدثني فيديا أثناء شرب الشاي عن زيارته لتورغينيف. وقال إنّ تورغينيف مُغتاظٌ بشدة، وغاضبٌ للغاية وكان يتحدث كثيراً عن روايته. لكن فيديا لم يتحدث عنه قط. فقد كانت مقالات الصحف النقدية تُغضب تورغينيف: يقول إنّهم يشتمونه في صحيفة «غولوس» (الصوت) ومجلة «مذكرات الوطن» وفي مجلات أخرى. وقال أيضاً لإنّ النُبلاء تحت قيادة فيليب تولستوي أرادوا استبعاده من طبقة النُبلاء الروسية، إلا أنّ هذا لم يحدث بأي شكلٍ من الأشكال. لكنه أضاف أنّه «لو كانوا يعلمون كم أنّهم سيمنحونني شعوراً بالارتياح بذلك». وكعادته، تحدث فيديا معه بلهجةٍ شديدةٍ إلى حدٍ ما، على سبيل المثال، نصحه بأن يشتري لنفسه تلسكوباً

في باريس، وبما أنّه يعيش بعيداً عن روسيا، فيمكنه أن يوجه التلسكوب ويشاهد ما حدث هناك، وإلا فلن يفقه عنها شيئاً. فقال تورغينيف، إنّه واقعيّ، ولكن فيديا قال إنّ هذا ما يظنه فحسب. وعندما قال فيديا إنّه لم يُلاحظ في الألمان سوى أنّ هذه بلادة، فضلاً عن أنّها في كثير من الأحيان تكون خداعاً، انزعج تورغينيف للغاية من ذلك وقال إنّ فيديا قد أهانه إهانة مؤلمة بهذا الكلام، لأنّه أصبح ألمانياً، وأنّه ليس روسياً إطلاقاً، وإنّما ألمانيّ. فردَ فيديا إنّه لم يكن يعرف ذلك مُطلقاً، لكنه يشعر بالأسف الشديد حيال ذلك. وإنّ فيديا، كما قال، كان يتحدث بصورةٍ مُتزايدة بروح الدُعابة أكثر من أنّه كان يُزعج تورغينيف، وكان يُبيّن له بوضوح أنّ روايته لم تحظَ بالنجاح. لكنهما افترقا، لقد كانا ودودين، وإنّ تورغينيف وعده بإعطائه الكتاب. ما الذي كان يفتخر فيه هذا الرجل غريب الأطوار حتى أصبح ألمانياً؟ يبدو لي أن ليس ثمّ من سبب يدعو كاتباً روسياً لأن يتخلى عن جنسيته، والأكثر من ذلك أن يعترف بنفسه على أنّه ألمانيّ. وما الخير الذي فعله له الألمان، بينما كان قد نشأ في روسيا، فرَبَّته وابتهجت بموهبته. أما هو فيتخلى عنها، ويقول إنّه لو انهارت روسيا، فلن يكون ثمّ شيء صعب للعالم في ذلك. يا له من أمر سيّئ أن يتحدث شخصٌ روسي بهذه الطريقة! حسناً، لا بأس، لندعه وشأنه، على الرغم من أنّني أعلم أنّ الحوار مع تورغينيف قد أغضب فيديا بشدة وأنّ هذه العادة الدنيئة قد أزعجت الناس لتبرئه من شقيقه».

وأخيراً، كتبت آنا غريغورييفنا في اليوم التالي: «استيقظ فيديا في الساعة العاشرة وكان يرغب بالنوم. قلت إنني أعمل الشاي. فجاءت ماري وأحضرت بطاقة تورغينيف، الذي وصل على عربةٍ، وبعد أن سألها عما

إذا كنا نعيش هنا، أمرها بتسليم هذه البطاقة لنا. ومن المرجح أنّه لم يشأ أن يُعرّج علينا بنفسه، حتى لا يتحدث مع فيديا، لكن لا يمكن إنكار واجب تهذّبه. يا له من أمر غريب: من ذا الذي يقوم بزيارة في الساعة العاشرة صباحاً؟ أهكذا تكون الزيارات على الطريقة الألمانية؟ بل وحتى في هذه الحالة يكون الأمر غريباً نوعاً ما».

تُعدّ مذكرات آنّا غريغورييفنا مادة موثوق بها لقصة العِداء الشهير للكاتبين. لكن هذا ليس المصدر الوحيد الذي يأتي من جانب دوستويفسكي، فثمّة شهادة قيمة لدوستويفسكي بحوزتنا أيضاً عن هذا اللقاء، والتي تُعدُّ المصدر الرئيس والأكثر تفصيلاً من مذكرات آنّا غريغورييفنا الواردة أعلاه، والتي هي دقيقة في أساسها. وتندرج شهادة دوستويفسكي الخاصة ضمن رسالة واسعة إلى صديقه القديم، الشاعر أ. ن. مايكوف. وتُعدّ هذه الرسالة عموماً مَستنداً قيّماً لدراسة سيرة حياة الكاتب، إذ أنّ دوستويفسكي يتحدّث في هذه الرسالة بصراحةٍ نادرة وبتفاصيلٍ مُفصّلة عن توجهاته في ذلك الحين، وعن حياته الحميمة، ونواياه الفنية، وأحواله المادية... ومن اللافت للنظر أنّها (الرسالة) تكشف عن عدد من المبادئ الأساسية لمُعتقدات دوستويفسكي، والتي بسببها انفصل عن تورغينيف.

إنّ الصراحة العميقة في رسالة دوستويفسكي تُفسر أيضاً حقيقة أنّ أ. ن. مايكوف كان في ذلك الحين الشخص الوحيد تقريباً الذي كان فيودور ميخائيلوفيتش خلال رحلته إلى الخارج، في مراسلات نشطة معه نقل فيها إليه أفكاره المكنونة في داخله. بالمناسبة، كان دوستويفسكي يعتزم أن يكتب إلى مايكوف بعد فترةٍ قصيرة من حواره مع تورغينيف. لذلك، في

يوميات آنّا غريغوريفنا في 10 أغسطس، كانت فيها المُذكّرة التالية؛ «قال فيديا اليوم إنّه سيكتب إلى مايكوف، ويشرح له وضعه بأكمله، ويطلب منه الحصول على 100 روبل؛ وإنّه على الرغم من أنّ مايكوف لا يملك المال، إلا أنّه، من المُرجح، أن يحصل عليه». ولكن لسبب غير معروف، لم يكتب دوستويفسكي رسالة إلى مايكوف من جنيف إلّا في 6 أغسطس (حسب التقويم الميلادي الغربي «الغريغوريّ»).

إنه من غير الممكن تلخيص هذه الرسالة الرائعة في بضع كلمات، كما أنّ عدد الموضوعات التي تمّ التطرق إليها عمقها كبير للغاية. وينبغي قراءة هذه الصفحات بعناية فائقة وإمعان من أجل الولوج في محتواها، وحينها سيكون العالم الداخلي للكاتب واضحاً لنا (هذه الرسالة مُستنسخة من قِبلنا بالكامل وبالأوتوغراف، وإنّ النسخة الأصلية للرسالة موجودة في أرشيف أ. ن. مايكوف، في بيت بوشكين حالياً):

جنيف، 28 / 16 أغسطس، 1867 [1]

حسناً إذن، كم مرّ من الوقت وأنا صامتٌ ولم أُجب على رسالتك الغالية يا صديقي العزيز أبولون نيكولايفيتش الذي لا يُنسى. إنّني أُسمّيك الصديق

(1) تُعدّ هذه الرسالة رداً على رسالة مايكوف. في أوائل سبتمبر، تلقّى أ. ن. مايكوف هذه الرسالة. وقد حولَ له مبلغ الـ125 روبلاً على الفور، والذي طلبه منه دوستويفسكي برسالةٍ مؤمّنٍ عليها (إذ كان دوستويفسكي قد كتب إليه في 15 سبتمبر: «لقد أنقذتَنا كثيراً الـ125 روبلاً التي بعثت بها إلينا»)؛ وقد كتب مايكوف لدوستويفسكي في 20 سبتمبر عن بقية تكليفاته المُنفّذة من قِبله. وبخصوص رسالة دوستويفسكي، فيمكننا أن نفترض أنها أصبحت معروفة فقط لعائلة مايكوف، وفي أفضل الأحوال، لأصدقائه المقربين، وستبقى محفوظة في أرشيفه. وفي الواقع، سرعان ما أصبحت هذه الرسالة مادّة لمُشاجرة كبيرة في العالم الأدبي.

الذي لا يُنسى وأشعر في صميم قلبي بأنّ هذا الاسم صائب، فأنا وأنت صديقان قديمان ومُتعوّدان على بعضنا البعض للغاية لدرجة أنّ الحياة التي فرقتنا، بل وأبعدتنا أحياناً[1] عن بعضنا، لم تُفرّق بيننا فحسب، بل ربما أنّها جمعتنا مع بعض إلى الأبد. وإن كنتُ كتبت فلأنّك شعرتَ بغيابي جزئياً، فلعل شعوري بغيابك كبير للغاية. وبالإضافة إلى القناعات التي ترسخت في عقلي بشكلٍ يومي في تشابه وتضارب في أفكارنا ومشاعرنا، ضع في نظر اعتبارك أيضاً أنّني بعد أن فقدتُك، انتهى بي الأمر في بلادٍ غريبةٍ، حيث ليس ثمّ وجهٌ روسيّ وكُتبٌ روسية وأفكارٌ ومشاغل روسية، بل وحتى شخصٌ مرحِّبٌ بي! في الواقع، أنا لا أفهم حتى كيف يمكن لشخصٍ روسي أجنبي، الذي لديه شعور وتفكير ألا يُلاحظ ذلك ولا يشعر بالألم حياله. ولعل هذه الوجوه تكون مُرحّبة لنفسها فقط، ولكنها تبدو لنا أنّها ليست مُرحّبة[2]. هذه هي الحقيقةَ! كيف يمكن للمرء أن يبقى على قيد الحياة في الخارج؟ أن تكون بلا وطن، فتلك والله هي المُعاناة بعينها. فمن الجيد أن يُسافر المرء إلى هناك لستة أشهر على الأقل أو لمدة عام. لكن السفر دون معرفةٍ أو درايةٍ متى تكون العودة، مثلما أنا سافرت؛ أمرٌ سيّئ وقاسٍ للغاية. أمرٌ قاسٍ مُنبعثٌ من التفكير في أنّني بحاجة إلى روسيا، بحاجةٍ إليها من أجل كتاباتي وعملي (ناهيك عمّا تبقى من حياتي)، وإلا فكيف يمكن العيش بلا ذلك! مثل سمكة بلا ماء؛ إنّني محرومٌ من القوة والمال. عموماً،

(1) ربما يُقصد هنا الأحداث المرتبطة باعتقال البتراشفايت. حيث كان الأخوان أ. ن. وف. ن. مايكوف على صلة بهذه الحركة، لكن ف. ن. مايكوف توفي قبل التحقيق بعامين، وأُطلق سراح أ. ن. مايكوف، رغم أنّه بقيّ تحت المُراقبة السرية.

(2) إشارة إلى كلمات مونولوج تشاتسكي في مسرحية أ. س. غريبويدوف الكوميدية «ذو العقل يشقى».

سنتحدث عن هذا الأمر. ثمّة كثير من الأمور التي يجب أن أحدّثك عنها وأطلب مشورتك ومُساعدتك فيها. فأنت الوحيد الذي يمكنني التحدث إليه من هنا. ملحوظة: بالمناسبة، اقرأ هذه الرسالة مع نفسك ولا تُخبر أي أحدٍ لا ينبغي أن تتحدث معه عني. وسترى بنفسك. ثمّة أمرٌ آخر: لماذا لم أكتب إليك طوال هذه الفترة؟ لا يمكنني الإجابة على هذا بالتفصيل. فإنّني لم أكن أُدرك بنفسي أموري غير المستقرة للغاية، وكنت أنتظر حتى ولو أدنى فرصة لكي أستقر من أجل بدء المراسلات معك. إنّني أعوّل عليك وحدك. اكتب لي كثيراً، لا تتركني وحيداً يا عزيزي! وإنّني بدوري سأكتب لك كثيراً وبشكلٍ مُنتظم. لنبدأ مراسلاتنا بشكل مُستمر؛ ناشدتك بالله! فهذا سيُعوّضني حرمان روسيا ويمنحني القوة.

اسمح لي أن أُحدثك عن هذه الأشهر الأربعة بصراحة. إنّك تعلم كيف سافرتُ ولأية أسباب. فثمّة سببان رئيسيان: أولاً، لكي أنقذ ليس صحتي فحسب، بل حياتي أيضاً. فقد بدأت نوبات الصرع تتكرّر كل أسبوع، وأنّ الشعور بهذا الاضطراب العصبي في الدماغ وإدراكه لا يُطاق. وكان العقل مضطرباً حقاً، هذه هي الحقيقة. لقد شعرتُ بذلك بينما كان الاضطراب العصبي يدفعني أحياناً إلى دقائق مجنونة. والسبب الثاني هو ظروفي: فلم يعد بإمكان الدائنين الانتظار أكثر من ذلك، وحينما غادرت، كان لاتكين وبعدها بيتشاتكين[1] قد رفعا علي دعاوى الحجز، وكانا بإمكانهما إلقاء القبض عليّ. ولنفترض أن دعوى الحجز في سجن الديون، (أقول ذلك لا من أجل التباهي ومن أجل الكلام) قد تكون من ناحية مفيدة جداً بالنسبة لي. وفي الحقيقة، ستكون هناك مادة، و«منزل أموات» ثانٍ، باختصار،

(1) لم يكن يعلم لاتكين بهذه الكمبيالة. فقد انتهت مدتها بالنسبة له في نوفمبر 1864.

ستكون المادة كافية على الأقل لكسب 4 أو 5 آلاف روبل، لكنني تزوجتُ للتوّ، بالإضافة إلى ذلك، هل كنت سأتحمّل العيش في الصيف الحار في سجن تاراسوف؟[1] لقد كانت تلك مسألة غير قابلة للحل. فلو كان من المستحيل علي أن أكتب في سجن تاراسوف مع نوبات الصرع، فكيف سأدفع ديوني؟ فقد تفاقمت أعباءٌ رهيبة عليّ. فسافرت، ولكنَّني سافرت حينئذ والموت يعصر فؤادي. ولم أكن أثق ببلد الغربة، أي أنني كنت مُتيقناً من أن التأثير الأخلاقي في الخارج سيكون سيئاً للغاية، سأكون وحيداً، وبلا مادة للكتابة، ومعي تلك الكائنة الشابّة التي كانت تسعى بفرحةٍ ساذجة لمشاركتي حياة الحلّ والترحال، لكنني رأيت أنّه في هذه الفرحة الساذجة كان هناك الكثير من عدم الخبرة والحماسة غير الناضجة، وقد عذّبني وآلمني ذلك كثيراً. وكنت أخشى أن تشعر آنّا غريغورييفنا بالملل معي ونحن بمفردنا. ولكننا في الحقيقة كنّا بمفردنا حتى ذلك الحين. ولم أكُن أُعوّل على نفسي: طبعي مريضٌ وقد تنبّأتُ بأنها ستُضنى معي. (ملحوظة: صحيحٌ أنّ آنّا غريغورييفنا، كما تبيّن، أقوى وأعمق مما كنت أعرفها وأتوقعها، وفي كثير من الحالات كانت هي ببساطة ملاكي الحارس، ولكن في ذات الوقت كان فيها الكثير من الطفولة وسن العشرين، وهو أمرٌ رائعٌ وضروري بطبيعته، لكنني من المُستبعد أن أمتلك القوة والقدرة لكي أُعاملها بنفس الطريقة. كل ذلك كان يلوح في ذهني قبل السفر، وعلى الرغم من أنّ آنّا غريغورييفنا، كما أشرت، قد بدت أقوى وأفضل مما كنت

(1) كان هناك قسم للديون في بطرسبورغ في مبنى سجن تاراسوف في السريّة الأولى التابعة لفوج إسماعيلوفسكي «دار نفقات المديونين المُتعسرين في الدفع» (ويُدعى في اللهجة العامية «الحفرة» أو «سجن تاراسوف»).

أعتقد، إلا أنّني ما زلت غير هادئ». ثم إنّ أموالنا القليلة كانت تُحرجني: فقد سافرنا بأموالنا القليلة جداً وقد استدنت من كاتكوف ثلاثة آلاف. وصحيح أنّني كنت مُعوّلاً على البدء بالعمل فوراً حال وصولي إلى الخارج. فماذا تبين؟ لم أفعل شيئاً، أو تقريباً لم أكتب شيئاً حتى الآن، فقد بدأتُ للتوّ العمل بجديةٍ وبشكل كامل. وحقيقة أنّني لم أفعل شيئاً، فما زلت في شكٍ من ذلك، لأنّني أدركت الكثير في ذلك وفكرت في أمور كثيرة. لكن لا يزال هناك القليل من المكتوب على الورق[1]، إلا أنّ المكتوب على الورق هو الناتج النهائي الذي يدفعون لقاءه».

بعد أن غادرنا برلين المُملّة على عجلة من أمرنا (حيث مكثت يوماً واحداً كان قد تمكن فيه الألمان المُملّون من إثارة أعصابي لحد الغضب، ودخلنا حماماً روسياً)، ذهبنا إلى دريسدن، واستأجرنا شقة واستقرينا فيها لبعض الوقت.

لقد كان الانطباع عجيباً للغاية. فطرَح السؤال نفسه على الفور: ما سبب وجودي في دريسدن، لماذا فيها بالضبط وليس في مكان آخر؟ وهل ثمّة ضرورة في ترك كل شيء في مكان ما والانتقال إلى مكان آخر؟ فكانت الإجابة واضحة: (الحفاظ على الصحة، والتهرب من الديون وما إلى ذلك). ولكن الأمر السيّئ كان أيضاً هو أنّني شعرت بوضوح شديد أنّ الأمر سيان بالنسبة إلي أينما عشت الآن، سواء في دريسدن أو في مكان ما آخر، وفي كل مكان أنا على الأراضي الغريبة، في أي مكان أنا مُعتمدٌ على نفسي بعد انقطاعي عن الكل. لقد أردتُ العمل على الفور، لكنني شعرت بعدم الرغبة في العمل إطلاقاً، فالانطباعات ليست نفسها قطعاً. فما الذي

---

(1) تمت كتابة الملاحظات الأولى لرواية «الأبله» في سبتمبر ـ نوفمبر 1867.

فعلته أنا؟ لقد عشت حياة بلادةٍ وخمول. فكنت أقرأ وأكتب شيئاً، وأتعذب من الغمّ ثم من الحرّ. مرّت الأيام برتابةٍ. وكنا آنّا وأنا نتجوّل بعد الغداء في الحديقة الكبيرة بشكل يوميٍ، ونستمعُ إلى الموسيقى الرخيصة[1]، ثم نقرأ، وننام بعدئذ. وقد تبين أن آنّا غريغوريفنا ذات شخصية مُحبة للأنتيكات بشكل حازم (وهذا أمرٌ لطيفٌ ومُسلٍّ لي). وبالنسبة لها، على سبيل المثال، فأنّها كانت تُعاين طوال الوقت على مبنى بلدية تافه، وتُدون عنه التفاصيل، وتصفه (الأمر الذي جعلها تفعل ذلك بعلامات الاختزال الخاصة بها حتى استهلكت 7 دفاتر للكتابة عنه)، ولكن أكثر شيء أثار اهتمامها وأذهلها هو الجاليري (متحف الفنون)، وقد سعدت لذلك كثيراً، لأنّ الانطباعات الكثيرة التي انبعثت في مُهجتها قد أبعدت عنها الشعور بالملل. فكانت تذهب إلى الجاليري كل يوم. وكم كنا نتبادل الحديث أنا وإياها عن أحبائنا في بطرسبورغ وموسكو، وعنك وعن آنّا إيفانوفنا، وكان الحزن يعصر فؤادينا أحياناً.

إنّني لا أصف لك أفكاري. فقد تراكمت العديد من الانطباعات. وإنّني أقرأ الصحف الروسية وأُفرّج عن همومي بها. وأخيراً، شعرت بأنّني أملك مادةً تكفي لكتابة مقالة كاملة عن العلاقات بين روسيا وأوروبا، وعن الطبقة الروسية العليا[2]. ولكن ما فائدة الحديث عن ذلك؟ لقد

---

(1) ذكرت آ. غ. دوستويفسكايا لاحقاً: «كانت المسافة من منزلنا إلى الحديقة ذهاباً وإياباً لا تقل عن ستة أو سبعة أميال، وكان زوجي، العاشق للمشي على الأقدام، يُقدّر هذا المشي كثيراً. (...) في تلك الأيام في الحديقة (...) في المساء، كانت تارةً تُعزف موسيقى الفوج أو النحاس، وتارة أخرى موسيقى الآلات».

(2) سرعان ما تم التطرق إلى موضوعات العلاقات بين روسيا والغرب، و«الطبقة الروسية العليا»، والشعب ومجموعة الأفكار المرتبطة بها في روايتي «الشياطين» و«المراهق».

حطم الألمان أعصابي، مثلما حطمتها حياتنا الروسية، وطبقتنا العليا، وثقتها بأوروبا وحضارتها. لقد هزّ حادث باريسي كياني للغاية. وكذلك المُحامون الباريسيون أظهروا حقارتهم بهتافهم «تحيا بولندا»! أفّ، يا لها من سفالة، والأهم من ذلك غباء الروتين الحكومي. لقد اقتنعت أكثر فأكثر بفكرتي السابقة من أنّ قلة معرفةِ أوروبا بنا أو معرفتها الدنيئة بأمورنا هو أمرٌ مفيدٌ لنا بعض الشيء. وما أكثر الاجراءات الرسمية الخسيسة لتفاصيل محاكمة السيد بيريزوفسكي![1] والأهم من ذلك هو كثرة الثرثرة واللفّ والدوران في ذات المكان!

إنّ روسيا تبدو لنا من هنا أكثر وضوحاً وبروزاً. وثمّة حقيقة مُدهشة للمتانة والنضج المُفاجئ للشعب الروسي في تقبل جميع إصلاحاتنا (على الأقل إصلاح قضائي واحد) وفي ذات الوقت نبأ التاجر المجلود في نقابة الحرفيين الأولى في مقاطعة أورينبورغ من قِبل رئيس شرطة المقاطعة[2].

---

(1) في 25 مايو 1867، قام المهاجر البولندي أ. بيريزوفسكي بمحاولة اغتيال الإسكندر الثاني، الذي كان مع حاشيته في باريس بمناسبة افتتاح المعرض العالمي. لكن بيريزوفسكي أخطأ في إصابة الهدف، وفي 30 مايو، غادر ألكسندر الثاني باريس متوجهاً إلى برلين. وبعد محاولة الاغتيال بوقت قصير، أظهر المحامون الباريسيون تعاطفهم مع البولنديين وبيريزوفسكي، وهتفوا «تحيا بولندا!». وفي سياق هذه التظاهرة اجتمع مجلس نقابة المحامين في جلسة خاصة لإصدار توبيخ رسمي للمتظاهرين ولكن لم يتم اتخاذ قرار بالتوبيخ. وجرت المحاكمة أمام هيئة المحلفين تحت شعار التعاطف نفسه مع بيريزوفسكي (جرت في 3 يوليو). فحُكم على بيريزوفسكي بالأشغال الشاقة بدلاً من عقوبة الإعدام.

(2) علم دوستويفسكي بالحادث الذي وقع في المعرض في «قرية بيريزوفكا التجارية، مقاطعة بيرسك، أوفا (وليس أورينبورغ. المحرر.)»، من «جولوس» (ونعني بالروسية الصوت)، التي كان يقرؤها بانتظام في الخارج. وفي الاعداد 192 و244 و254 لشهر يوليو 1867، ذُكِر فيها التاجر سيفاستيانوف، الذي جاء إليه رئيس مركز الشرطة

ثمّة شيء واحدٌ نلمسه: هو أنّ الشعب الروسي، وبفضل وليّ نعمته وإصلاحاته[1]، قد أصبح في نهاية الأمر، شيئاً فشيئاً، في هذا الموقف الذي سيعتادون فيه بشكل لا إرادي على الكفاءة في العمل، والاستِبطان، وفي هذا بالضبط تكمن المسألة. ويشهد الله علي أنّ زمننا الآن يكاد يكون أكثر أهمية من حقبة بطرس[2] من حيث نقطة التحول والإصلاحات. وإلى أين المفرّ؟ التعجل بالسفر إلى الجنوب بأسرع ما يمكن؛ هنا تكمن المسألة[3].

فاتلانوف وطلب منه نيابةً عن قائد الشرطة فاسيلييف مبلغ 5000 روبل. فرفض التاجر أن يُعطي الرشوة. وسرعان ما قبض عليه رجال الشرطة، وتحت التهديد بالانتقام طلب قائد الشرطة من زوجته 10000 روبل. فرفض سيفاستيانوف مرة أخرى وجُلِد على الفور بالسياط. وبعد العقاب الجسدي، طلب قائد الشرطة من التاجر أن يُقبلوا بعضهم البعض هو ومساعديه، قائلاً في الوقت نفسه: «أنا وإياك لم نتفق في المبادئ. لقد أخذت ثروةً كبيرةً لنفسك ولم ترغب في مشاركتها معنا. الآن نحن وإياك مُتعادلون، أنت تلتزم الصمت ونحن لن نتحدث»، (صحيفة 1867، 14 يوليو، العدد 192). فلم يوافق سيفاستيانوف على التزام الصمت، وأُحيلت القضية إلى المحكمة (كما هو معروف، تم إعفاء تجار النقابتين الأولى والثانية من العقاب الجسدي حتى في عهد كاترين الثانية).

(1) في ستينيات القرن التاسع عشر، قامت حكومة الإسكندر الثاني بإصلاح الإدارة المركزية والمحلية، ونظام المرافعات القضائية، ونظام التعليم العام، وأنشطة الصحافة.

(2) جذبت حقبة بطرس الأول وأنشطته الإصلاحية انتباه دوستويفسكي باستمرار. واعترافاً بالحاجة إلى إصلاحات بطرس، التي سمحت للثقافة الروسية باستيعاب ثمار التطور طويل الأمد للفكر الأوروبي، أكد دوستويفسكي مراراً وتكراراً أنّ هذه الإصلاحات شكلت فجوة عميقة بين الطبقات العليا والشعب. وبعد بضع سنوات، في دفتر مُذكرات 1872 ـ 1873، يُشير دوستويفسكي إلى أنّ: «جميع إصلاحات العهد الحالي تتعارض (في جوهرها) بشكل مباشر مع إصلاحات بطرس الأكبر وإلغائها في جميع النقاط (...) ويمكن اعتبار العهد الحالي بحزم بداية نهاية فترة بطرسبورغ من التاريخ الروسي (الطويل للغاية). (اختناق روسيا في إطار عهد بطرس الضيق)».

(3) في الأعوام 1857 ـ 1859، أنشأت الحكومة عدة شركات مساهمة لبناء شبكة السكك الحديدية. وكان أحد الأهداف الرئيسة لهذا البناء هو خدمة السوق المُربحة. لهذا، كان من المتوقع، أولاً وقبل كل شيء، أن تكون هناك عدة خطوط جنوبية تم بناؤها في أواخر

وحتى ذلك الوقت، سيسود العدل في كل مكان، وحينها سيكون هناك تجديد عظيم! (إنّني أُفكر وأحلم في كل هذا هنا، وقلبي يخفق من ذلك الأمر برمّته).

على الرغم من أنّني لم أُقابل أحداً هنا تقريباً، إلا أنّه لا يسع المرءُ إلا أن يُصادف أحداً ما عن صُدفةٍ. لقد صادفتُ في ألمانيا روسياً يعيش في الخارج بشكل دائم، ويسافر إلى روسيا كل عام ويبقى فيها لثلاثة أسابيع لكي يتحصل على أرباحه ويعود مرة أخرى إلى زوجته وابنائه في ألمانيا، والذين أصبحوا جميعهم ألمانيين.

لقد سألته، بالمناسبة: «لماذا غربت نفسك؟» فأجابني حرفياً (بوقاحةٍ انفعالية): «هنا توجد حضارة، أما عندنا فهناك همجية. فضلاً عن أنّه ليست ثمّة قوميات هنا؛ بالأمس كنت على متن عربة القطار ولم أتمكن من التفريق بين الفرنسي والإنجليزي والألماني».

- وهل هذا يعني تقدماً حسبما تظن؟
- نعم، بالطبع.
- وهل تعلم أنّ هذا غير صحيح إطلاقاً. فالفرنسي يبقى فرنسياً بالمقام الأول، والإنجليزي إنجليزياً، وأن يكون المرء على طبيعته هو الهدف الأسمى لهم. وليس هذا فحسب: فإنّ قوتهم تتجلى في هذا الأمر أيضاً.

ستينيات القرن التاسع عشر ـ أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر: موسكو ـ كورسك ـ خاركوف (1868)؛ موسكو ـ ريازان ـ كوزلوف ـ فورونيج (1869)؛ موسكو ـ سمولينسك ـ مينسك ـ بريست (1871). وفي الوقت نفسه، رُبطت شبكة الطرق أوديسا بأوكرانيا وبيسارابيا.

- هذا أمرٌ غير صحيح تماماً. ينبغي أن تُساوي كل شيء، وحينئذ سنكون سُعداء فقط عندما ننسى أننا روس، وسيكون كل واحد منا شبيهاً بالآخرين. ويجب ألّا نُصغي إلى كاتكوف![1]

- ألا تُحبّ كاتكوف؟

- إنه خسيس.

- لماذا؟

- لأنّه لا يُحب البولنديين.

- وهل تقرأ مجلته؟

- كلا، لا أقرؤها إطلاقاً.

إنّني أنقل إليك هذا الحوار حرفياً. فهذا الإنسان ينتمي إلى الشبيبة التقدميين، غير أنّه، على ما يبدو، يُبقي على نفسه بمنأى عن الجميع. وفي الغربة يتحولون إلى أشخاص يشبهون كلاب الإسبتز المسعورة والمتوترة.

في نهاية المطاف، اكتنفتني الكآبة، أنا وآنّا غريغوريفنا، في دريسدن. والأهم من ذلك، قد أثرت فينا الوقائع الآتية: 1) وفقاً للرسائل التي أرسلها إلي بافل (لم يكتب لي سوى مرة واحدة فحسب)، أدركت أنّ الدائنين قد قدموا طلباً بالحجز (مما يعني أنّنا من المستحيل أن نعود إلى روسيا إلا بعد أن نُسدد الديون بالكامل). 2) شعرَت زوجتي بأنّها حامل. (أرجوك ليبقَ هذا الأمر بيننا. وسيكون شهرها التاسع بحلول فبراير) وبالتالي، فأنّ

---

(1) كان موقف م. ن. كاتكوف في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر قومياً وذا نزعة شوفينيّة بشكل صريح. وهو ما أشارت إليه زوجة الكاتب بالحديث في هذه الحالة عن فيسكوفاتوف.

العودة مُستحيلة). 3) ثمّة سؤال يطرح نفسه: ماذا سيحدث لأقربائي في بطرسبورغ، إميليا فيودوروفنا وبافل وآخرين غيرهما؟ فهم بأمس الحاجة إلى المال، وليس ثمّة نقود! 4) إذا كنا سنقضي الشتاء في مكانٍ ما في الخارج، فمن المُستحسن أن نقضيه في مكان ما في الجنوب. وإلى جانب ذلك، فأنني أردت أن تُشاهد آنا غريغورييفنا أماكن جديدة على الأقل للترفيه عن نفسها، والتجوال معها. لذلك قررنا أن نقضي الشتاء في مكان ما في سويسرا أو إيطاليا. ولكننا لا نملك نقوداً لذلك. فقد أنفقنا كل النقود التي أخذناها معنا. فكتبتُ إلى كاتكوف، ووصفت له الوضع برمته وطلبت منه أن يقرضني مبلغ 500 روبل أخرى. فماذا تعتقد؟ لقد أرسل النقود. فيا لروعة هذا الرجل! ويا له من إنسان صاحب قلبٍ كبير! لقد ذهبنا إلى سويسرا. لكنني هنا سأبدأ بوصف دناءتي وعاري.

عزيزي أبولون نيكولايفيتش، أشعر أنّه يمُكنني أن أعتبرك حكماً لي. إنّك إنسان ومواطن. إنسان صاحب قلبٍ كبير، وقد أكّدتَ لي ذلك من قبل. إنّك زوج وأبٌ مثاليّ، ثم أنّني دائماً ما كنت أقدّر حُكمك. والأمر ليس مؤلماً لي لكي أُعلن التوبة أمامك. إلا أنّني أكتب لك وحدك فحسب. فلا تُسلمني إلى محكمة البشر!

أثناء مروري بالقرب من بادن، خطرَ لي أن أتوجه نحوها. فوخزتني فكرة مُغرية: وهي التضحية بـ10 لويس ولربما أربح 2000 فرنك كافية للعيش لمدة 4 أشهر مع تلبية كل ما يحتاجه أقاربي في بطرسبورغ. والأردأ من ذلك هو أنّني كنت أربح أحياناً في السابق. والأسوأ من ذلك كله هو أنّ طبعي لئيم وعاطفي للغاية. ففي كل شيء وفي كل مكان أصل بالأمور إلى حدها الأخير، وكنت طوال حياتي أتجاوز الحدود.

لقد ضحك عليّ الشيطان فوراً: فربحت في ثلاثة أيام 4000 فرنك بمنتهى السهولة. والآن سأصف لك كيف بدا الأمر لي: من ناحية، هذا ربح سهل، فقد ربحت من مئة فرنك 4000 في ثلاثة أيام. ومن ناحية أخرى، ديون، وحجز، وقلق نفسي، وعدم إمكانية العودة إلى روسيا. وأخيراً، ثالثاً والأهم، هو اللعب نفسه. فهل تعلم ما أشد جذبه! لا، أقسم لك أنّه ليست ثمّة مصلحة شخصية من ذلك، رغم أنّني في البداية كنت بحاجة إلى المال وكسب المزيد منه. لقد توسلت إلي آنّا غريغورييفنا أن أكتفي بالـ4000 فرنك وأن أرتحل فوراً. ولكن يا لها من فرصة سهلة وممكنة لإصلاح أموري! وما أكثر الأمثلة الأخرى تأثيراً على ذلك؟ وبالإضافة إلى أرباحي الشخصية، فقد كنت أرى كل يوم أشخاصاً يكسبون 20000 و20000 فرنك. (ولا أرى الخاسرين). فبِمَ هم مُقدسون؟ إنّني بحاجة إلى المال أكثر منهم. لقد واصلت المُخاطرة بكل شيء وخسرت. وأضحيت أخسر آخر ما لدي مُغتاظاً حد الحُمى، وخسرت. حتى أنّني بدأت برهن الثياب. وقد رهنَت آنّا غريغورييفنا آخر ما تملك من أشياء (فيا لها من ملاك! وكيف كانت تُطيّب خاطري، وتضجر في بادن اللعينة، في غرفتينا اللتين انتقلنا إليهما فوق ورشة حدادة). وفي النهاية، خسرتُ كل شيء، خسرنا كل ما نملك. (آه، يا لحقارة الألمان، كلهم دون استثناء، مُرابون، نصابون وسفَلة! وقد أدركَت صاحبة الشقة أنّنا لن نُغادر إلى أي مكان ما لم نحصل على المال، فرفعت الإيجار علينا!). وأخيراً، صار لا بدّ من الفرار ومُغادرة بادن. كتبت إلى كاتكوف مُجدداً، وطلبت منه 500 روبل أخرى (ناهيك عن أنّني لم أكتب له عن ظروفي، إلا أنّ الرسالة كانت من بادن ولعله فهم الأمر بعض الشي). لكنه أرسل النقود! أرسلها عموماً! وإنّ

مجموع ما أخذته حتى الآن من البشير الروسي هو 4000. إلا أنّ المُشكلة تكمن في أنّني أنفقت نصف الـ 500 روبل لدفع الفوائد وعمولة رهن أثاثنا في بطرسبورغ، وهو ما قامت به والدة آنّا غريغورييفنا. وبناءً على طلبي، أرسلت مجلة البشير الروسي المال باسمها. ثم ذهبت 100 روبل لسداد الديون في بادن، ونحن بانتظار أن تُرسل لنا والدة آنّا غريغورييفنا 50 روبلاً أخرى (من نفس الـ 500 روبل. وهذا ما هو مُتبقٍ من الأموال التي لم نستلمها حينها) وأخيراً بقيت لدينا ما يُقارب الـ 200 فرنك للانتقال إلى جنيف. لماذا ننتقل إلى جنيف؟ وكيف لي أن أعرف؟ وهل ثمّة فرق في ذلك؟). انتقلنا إلى جنيف، واستأجرنا غرفة مؤثثة عند امرأتين عجوزتين، والآن، أي في اليوم الرابع، بقي لدينا 18 فرنكاً من مجموع أموالنا. فضلاً عن الـ 50 روبلاً التي ننتظرها من آنّا نيكولاييفنا (والدة آنّا غريغورييفنا)، ولن نستلمها إلا بعد شهرين.

ولكن لكي نتخلص من بادن، والتي كنا فيها، عانينا الأمرّين في هذا الجحيم لمدة 7 أسابيع. وفي البداية، عند وصولي إلى بادن، التقيت في اليوم التالي بغونتشاروف في محطة القطار. وقد ارتبك إيفان ألكساندروفيتش غونتشاروف[1] عندما رآني في بادئ الأمر. وإنّ هذا المُستشار المدني أو المُستشار الفعلي[2] كان يُحبّ لعب القمار مثلي. ولكن بما أنّ الاختباء قد اتضح أنّه مستحيل، فضلاً عن أنّني ألعب بصراحةٍ شديدة وبشكلٍ مكشوف، فقد توقّف هو الآخر عن الاختباء. كان يلعب بحماسة شديدة

(1) حدث اللقاء مع إي. أ. غونتشاروف في 25 يونيو، (مكث غونتشاروف في بادن ـ بادن من 18 يونيو إلى 19 ـ 20 يوليو).

(2) في عام 1863 تمت ترقية غونتشاروف إلى رتبة مُستشار مدني فعلي.

(في القطع الفضية الصغيرة)، وقد بقي يلعب طوال الأسبوعين اللذين قضاهما في بادن، ويبدو أنّه قد خسر الكثير من أمواله. ولكن، ليحفظه الله هذا الإنسان اللطيف، عندما خسرت كل ما أملك (كان قد رأى من قبل الكثير من القطع الذهبية في يدي)، أعطاني، بناءً على طلبي، سُلفة بقيمة 60 فرنكاً. وكان يجب عليه أن يُدينني بشدة: «لِمَ خسرت كلّ شيء أنا، وليس النصف مثله هو؟».

لقد كان غونتشاروف يُحدّثني كثيراً عن تورغينيف[1]، لذلك، وعلى الرغم من تأجيلي المرور على تورغينيف، قررت في نهاية المطاف أن أقوم بزيارته. فذهبت إليه نهاراً في الساعة 12 ووجدته جالساً على مائدة الإفطار. وسأقول لك بصراحة: إنّني لم أكن أُحب هذا الرجل شخصياً في السابق. والأسوأ من ذلك هو أنّه منذ عام 1867 في فيسبادن، كنت مديناً له بمبلغ 50 تالراً (لم أعطِها له حتى الآن!)[2]. وإنّني أيضاً لا أُحب عناقه الأرستقراطي الريائي، والذي من خلاله يلتصق بك ليُقبّلك، لكنه يُدير خده إليك لِتُقبّله رُغماً عنك. يا لفظاعة كبريائه؛ والأهم من ذلك هو أنّ كتابه «الدخان» يُثير غضبي. فقد أخبرني هو بنفسه أنّ الفكرة الرئيسية، والنقطة الأساسية في كتابه هذا تتجلّى في هذه العبارة: لو انهارت روسيا، لما كانت هناك أيّة خسارة أو اضطرابات في البشرية». وقد أخبرني أنّ

---

(1) كان موقف غونتشاروف تجاه إي. س. تورغينيف لسنوات عديدة متحيزاً وغير طبيعي. ويُفسر غونتشاروف أسباب هذا الموقف بإكمال شامل في نوع من الاعتراف «قصة غير عادية. (أحداث حقيقية)»، المكتوبة في الأعوام 1875 ـ 1878، والتي لم تكن مخصّصة للنشر.

(2) هنا في نص الرسالة فلتة قلم: فالحديث يدور عن حدث عام 1865.

هذا هو مُعتقده الرئيس حول روسيا[1]. ورأيته مُنزعجاً بشدةٍ من فشل «الدخان»[2]. وأعترفُ بأنّني لا أعرف كل تفاصيل فشلها. كان قد كتب لي عن مقال ستراخوف في «مُذكرات الوطن»[3]. ولكنني لم أكن أعلم أنّ الجميع ينقدونه في كل موضعٍ وموقعٍ، حتى أنّهم في موسكو، في أحد النوادي، على ما يبدو، قاموا بجمع تواقيع للاحتجاج على «الدخان»[4].

وكان قد حدثني عن ذلك بنفسه. أعترف لك أنّني لم أكن أتصور أبداً أنّه من المُمكن إظهار كل مشاعر الكبرياء الشخصي بسذاجةٍ وحرجٍ كما فعل تورغينيف. وأنّ هؤلاء الأشخاص، بالمناسبة، فخورون أنّهم

---

(1) وضعت هذه «الفكرة الرئيسية» في الرواية في فم بوتوغين.

(2) جذبت رواية «الدخان» فور صدورها اهتماماً واسعاً لدى القراء. وقد وصف صديق تورغينيف، ب. ف. أنينكوف، ذلك في رسالةٍ إلى مراسلهِ: «إن بطرسبورغ تقرأ «الدخان» في هذه اللحظة، ولا تُخالجهم القلاقل. (...) وأنّ معظمهم خائفون من الرواية، التي تدعوهم إلى الاعتقاد بأنّ الأرستقراطية الروسية بأكملها، بل والحياة الروسية كلها، ما هي إلا سفالة»، (رواية الأرض البكْر. 1888. المجلد 23، العدد 20، صفحة 201). وكان موقف مايكوف حيال الرواية سلبياً. وفي وقتٍ لاحقٍ كتب إلى دوستويفسكي: «فيما يتعلق بتورغينيف، كان ينبغي أن يكون الأمر كما كان عليه. فهو يتخيل من مسافة جيلة أنّ روسيا ستقبل بكل ما يصفه وهي راكعةٌ، ولكن اتضح أنّها تجرأت على التفكير بنفسها والحكم عليك. «كيف تجرأت هي؟ لكي تسقط!» إليك ما تكمن فيه العملية برمتها».

(3) جاء في رسالة ردٍ من مايكوف بتاريخ 27 أغسطس 1867، أنّ ن. ن. ستراخوف «قد كتب تحليلاً مُهذباً وجيداً للغاية عن «الدخان»». وقد نُشِرَت مقالة ستراخوف في عدد شهر مايو 1867 في مجلة «مُذكرات الوطن».

(4) نقلت ن. أ. أوستروفسكايا، إحدى معارف تورغينيف، في «مذكراتها» قصة الكاتب نفسه عن الانطباع الذي أحدثته «الدخان» في أوساط الطبقة الأرستقراطية في سانت بطرسبرغ: «... عندما صدرت «الدخان»، كان الجنرالات الحقيقيون، مُستائين للغاية لدرجة أنّهم أقبلوا على كتابة رسالة جماعية إليّ في إحدى الأمسيات الجميلة في النادي الإنجليزي، والتي بموجبها طردوني من جمعيتهم».

ملحدون! وقد أخبرني تورغينيف أنّه مُلحدٌ من رأسه إلى أخمص قدميه. ولكن، يا إلهي: لقد منحنا المسيح الربوبية، أي بمعنى التصور السامي للإنسان لدرجة أنّه من المستحيل فهمه فيها بلا إجلال، ولا يسعُ المرء إلا أنّ يؤمن بأنّه هذا هو المثل الأعلى السرمدي للإنسانية![1] فما الذي قدموه لنا تورغينيف، وغيرتسن، وأوتين[2] وتشيرنيشيفسكي ومن تأشَّب إليهم؟ فبدلاً من الجمال الإلهي الأسمى الذي يبصقون عليه، نحسبهم جميعاً مغرورين بأنفسهم بشكلٍ مُبغضٍ وخبيث، ومُتوترين ومُنفعلين بلا خجل، ومُتكبرين برعونةٍ لدرجة يجعلون الأمر علينا غير مفهوم. على ماذا يُعوّلون، ومن الذي سيتبعهم؟ لقد سبَّ تورغينيف روسيا بقبحٍ وبشاعةٍ. ولكن إليك ما لاحظته: إنّ كل هؤلاء الليبراليين والتقدميين، وأكثرهم من مدرسة بيلينسكي، يجدون في سبِّ روسيا أولى سعادتهم ورضاهم[3]. ويكمن الفرق في أنّ أتباع تشيرنيشيفسكي يشتمون روسيا ببساطةٍ ويرغبون بسقوطها علانيةً (وغالباً ستسقط!). وأما هؤلاء أخلاف بيلينسكي فيضيفون إلى ذلك أنّهم يُحبون روسيا. إلا أنّهم مع ذلك يكرهون كل ما فيه قليلٌ من الأصالة في روسيا، لذلك ينكرونه

---

(1) في وقتٍ لاحق، كتب دوستويفسكي في «يوميات كاتب» عام 1873، مُستشهداً بقول إي. رينان، إنّ المسيح «هو المثل الأعلى للجمال البشري، ونموذجٌ لا مثيل له، ولا يمكن تكراره حتى في المستقبل».

(2) يتعلق الأمر بـ ن. إي. أوتين. في عام 1863، بعد أن تم تحذيره من الاعتقال القادم، هاجرَ إلى الخارج وأقام في البداية في لندن، ومن ثم في جنيف.

(3) في رسالة دوستويفسكي هذه، وكذلك في عدد من الرسائل الأخرى القريبة إلى مايكوف وستراخوف وس. د. يانوفسكي بحسب توقيتها، تم التعبير عن مواقفه المُعادية للغرب وذات النزعة القومية في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، والتي انعكست في رواية «الشياطين».

ويلجؤون على الفور إلى الكاريكاتير بارتياحٍ ومتعةٍ، فماذا لو قدّمنا لهم في النهاية حقيقة فعليةً لا يمكن دحضها أو إفسادها بالكاريكاتير، والتي يضطرون بالموافقة عليها بشتى الطرق؟ إذن، يبدو لي أنّهم سيشعرون بالعذاب والألم والتعاسة، هذا أول الأمر. ثانياً، لاحظتُ أنّ تورغينيف، على سبيل المثال (حاله حال الذين لم يكونوا في روسيا من قبل)، لا يعرفون الحقائق على الإطلاق (على الرغم من أنّهم يقرؤون الصحف) وقد فقدوا كل إحساسٍ بروسيا بوقاحةٍ، فهم لا يفهمون مثل هذه الحقائق العادية حتى أنّ العدميين الروس لدينا لم يعودوا ينكرونها، والذين أصبحوا يسخرون بالرسوم الكاريكاتيرية بطريقتهم الخاصة فحسب. بينما قال لي تورغينيف إنّه يجب علينا أن نتذلّل أمام الألمان، وإنّه ثمّ طريقٌ واحدٌ مشتركٌ لا مناص من المضي فيه، وهو الحضارة، وإنّ جميع محاولات التروّس والاستقلالية الروسية ما هي إلا حقارة وغباء. وقال إنّه كتب مقالة طويلة عن كل مُحبّي الروس وأنصار النزعة السُلافية[1]. وقد نصحته، من أجل راحته، أن يشتري تلسكوباً من باريس. فسألني ولأجل ماذا أشتريه؟ فأجبته: إنّ المسافة بعيدة من هنا، قُم بتوجيه التلسكوب نحو روسيا وانظر إلينا، وإلا، فمن الصعب الرؤية من هنا في حقيقة الأمر. فغضب بشدة. وعندما رأيته غاضباً للغاية، قلت له بحقٍّ

---

(1) يُقصد بذلك مقالة تورغينيف غير المحفوظة «أسرة آل أكساكوف وأنصار النزعة السُلافية»، التي أتمّها، كما يتضح من الرسالة المُعلق عليها، في عام 1867 (وليست في عام 1869. راجع: تورغينيف. المؤلفات. المجلة 14. صفحة 572). وفي عام 1874، كان من المفترض أن تكون جزءاً من «المُذكرات الأدبية واليومية» (انظر: تورغينيف. الرسائل. المجلة 13، الكتاب 1. صفحة 272)، ولكن بسبب الموقف السلبي الحاد لأكساكوف تجاه حقيقة نشر مقالة مُشابهة، تخلى تورغينيف عن نيته. لكن الكاتب لم يدرجها في مؤلفاته الكاملة للأعوام 1880 و1883.

بسذاجة ناجحة جداً: «لم أكن أتوقع أنّ كل هذه الانتقادات لك بعد فشل «الدخان» ستُثير انفعالك إلى هذه الدرجة؛ تالله إنّ الأمر لا يُساوي شيئاً، ابصق عليه». فقال لي مُحمرَّ الخدين: «لكنني لست مُنزعجاً إطلاقاً». فغيَّرت الحديث. وبدأنا نتحدث عن الشؤون المنزلية والشخصية، ثم أخذتُ قبعتي، وبطريقةٍ ما، ذكرتُ بالمناسبة، ومن دون قصد، كل ما تراكم في سريرتي من الألمان في ثلاثة أشهر:

«أتعرف، أي نوع من المحتالين والغشاشين الموجودين هنا بينهم. بالحق، الحمقى هنا أسوء بكثير وأكثر دناءة مما عندنا، ولا ريب في أنّ الألمان هنا أغبى منا. إنّك تتحدث عن الحضارة؛ حسناً، وما الذي فعلَته لهم الحضارة؟ وبِمَ يمكنهم أن يتباهوا ويتفاخروا أمامنا بهذه الطريقة؟».

فشحب لون وجهه (إنّني لا أبالغ بأي شيء حرفياً!) وقال لي: «إنّك تُسيء إليّ شخصياً حينما تتكلم بهذه الطريقة. اِعلم أنّني انتقلت للعيش هنا نهائياً، وأنّني أعتبر نفسي ألمانياً، وليس روسياً، وفخورٌ بذلك!» فأجبته: «على الرغم من أنّني قرأت «الدخان» وتحدثت إليك الآن لمدة ساعة، إلا أنّني لم أتوقع منك أن تقول هذا، بالتالي، لا تؤاخذني لأنّني أهنتك وأسأت إليك». ثم ودّعنا بعضنا البعض بمنتهى الأدب والتهذيب، وعاهدت نفسي بألّا أذهب إلى تورغينيف أبداً. وفي اليوم التالي، عرجَ علي تورغينيف في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وترك بطاقته الشخصية عند صاحبتي الشقة لكي تُسلماها إليّ. ولكن بما أنّني أخبرتُه عشية يوم أمس بأنّني لا أستطيع استقباله قبل الساعة الثانية عشر، وأنّنا ننام حتى الساعة الحادية عشرة، إلا أنّني فهمت من مجيئه في العاشرة صباحاً تلميحاً واضحاً من أنّه لا يرغب بمقابلتي وقام بهذه الزيارة إلي في الساعة العاشرة تحديداً لكي أفهم هذا

التلميح فحسب. لقد تصادفنا طوال الأسابيع السبعة تلك مرة واحدة فقط في محطة القطار. وكنا ننظر إلى بعضنا البعض ولم نرغب في المصافحة.

لعلك، يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش، لا تُسرّ من الشماتة هذه التي أصف بها لك تورغينيف، وكيف أهنّا بعضنا البعض. لكني والله، لم أستطع التحمل؛ لقد أهانني كثيراً بمُعتقداته. الأمر سيان بالنسبة إليّ شخصياً، رغم أنه ليس جذاباً بكبريائه وأنفته العالية؛ ولكن لا يسع المرء أن يستمع إلى مثل هذه الشتائم بحق روسيا من روسيٍّ خائنٍ، كان من الممكن أن يكون نافعاً لها. لقد لاحظتُ منذ فترة طويلة، منذ أربع سنوات مضت[1]، تملّقه أمام الألمان وكراهيته للروس. لكن الانزعاج الحالي، وتكالبه وحنقه الثرثار على روسيا سببه الوحيد هو فشل «الدخان» وجرأة روسيا على عدم الاعتراف بعبقريته[2]. وليس ثمّة شيء سوى الكبرياء والغرور، وهذا أحقر وأخسّ.

عموماً، فليذهبوا جميعهم إلى الجحيم!

والآن، استمع يا صديقي إلى نواياي: إنّني بالطبع، قد فعلتُ شيئاً لئيماً لأنني خسرت. ولكنني خسرت بعضاً من نقودي نسبياً. بيد أنّ تلك النقود

---

(1) يذكُر دوستويفسكي لقاءه مع تورغينيف في سبتمبر 1863 في بادن ـ بادن.

(2) لقد أدى صدور رواية «الدخان» إلى تصعيد وتيرة الخلافات الأيديولوجية بين الكاتبين لأقصى حدّ. وتأثرت علاقتهما الشخصية المتواصلة بالخبر الذي نقله أنينكوف إلى تورغينيف والذي زعم فيه أنّ رسالة دوستويفسكي حول لقائهما في بادن قد سلمها الأخير إلى هيئة تحرير «الأرشيف الروسي» لنشرها في عام 1890. فاضطر تورغينيف إلى كتابة رسالة إلى ب. إي. بارتينيف. واتضح أنّ المذنب في هذه القصة غير السارة هو مايكوف، الذي أظهر رسالة دوستويفسكي إلى ن. ب. بارسوكوف ابن أخ ب. إي. بارتينيف.

كان من الممكن أن تضمن معيشتنا لمدة شهرين، بل وحتى لأربعة أشهر وفقاً لنمط حياتنا. لقد سبق وأن قلت لك إنّني لم أستطع مقاومة الربح. وإن كنت قد خسرت العشر قطع نقدية في البداية، لتركت كل شيء فوراً ورحلت. لكن كسب 4000 فرنك قد أهلكني! ولم تكن ثمّة فرصة لمُجابهة إغراءات كسب المزيد (عندما اتضح أنّه سهلٌ للغاية) والتخلص من كل مقاضاة الدائنين هذه دفعةً واحدة وإعالة نفسي وتأمين مُتطلباتي لبعض الوقت وتأمين مُتطلبات أهلي: إيميليا فيودوروفنا وبافل وآخرين. غير أنّ هذا كله لا يبرّر تصرفي مُطلقاً، لأنّني لم أكن وحيداً. فقد كنت مع مخلوقة شابة رائعة وطيبة القلب، كانت تثق بي ثقةً عمياء، وقد كنت لها حامياً وراعياً، وبالتالي، لم أستطع أن أجرّها إلى الهلاك وأُخاطر بكل شيء، وإنّ كان قليلاً. يبدو لي أن مُستقبلي شاقٌّ للغاية: الشيء الأهم هو أنّني لا أستطيع العودة إلى روسيا للأسباب الواردة في أعلاه، والأشدّ من ذلك هو السؤال الآتي: ماذا سيحدث لأولئك الذين يعتمدون على مساعدتي؟ كل هذه الأفكار تقتلني. ولكن، سواء بهذه الطريقة أو تلك، فمن الضروري الخروج من هذا الوضع بأية طريقة كانت، عاجلاً أم آجلاً. ولا أستطيع التعويل بالطبع، إلا على نفسي فحسب، فليست ثمّة طريقة أخرى في بالي لحل هذا الأمر.

في عام 1865، بعد عودتي من فيسبادن، في أكتوبر، أقنعت الدائنين بطريقة ما بالانتظار قليلاً، واستجمعت قواي وبدأت بالعمل[1]. وقد نجحتُ في أن أدفع أجور الدائنين بشكلٍ لائق. والآن جئت إلى جنيف بأفكارٍ تدور في مُخيّلتي. وثمّة لدي خطة لرواية، وإن شاء الله، ستخرج

(1) المقصود هنا العمل على رواية «الجريمة والعقاب».

عملاً أدبياً ضخماً، وربما جيدة. إنّني أُحبّها للغاية، وسأبدأ في كتابتها بارتياح يكتنفه القلق.

أخبرني كاتكوف بنفسه في أبريل أنّهم يرغبون وسيكون من الأفضل لهم أن يبدؤوا بنشر روايتي في شهر يناير 1868. وهذا ما سيحدث، رغم أنّني سأبدأ بإرسال الرواية لهم على شكل أجزاء في وقتٍ أبكر من ذلك[1].

وعلى الرغم من عدم وجود الدائنين هنا، إلا أنّ وضعي أسوأ مما كان عليه في عام 1865، فقد كنت حينها أرى بافل وإيميليا فيودوروفنا أمام ناظري. وإلى جانب ذلك، كنتُ لوحدي. صحيح أنّ آنّا غريغوريفنا ملاك، وتمنيت لو أنّك كنت تعرف ما تعنيه بالنسبي لي الآن. إنّني أُحبها، وهي تقول إنّها سعيدة، سعيدة جداً، وليست بحاجة إلى أي ترفيه أو لقاء من الناس، وإنّها راضية للغاية بوجودها معي في غرفة واحدةٍ.

حسناً، ما يعني الآن هو أنّني سأعكف على العمل المتواصل لستة أشهر. ولكن بحلول ذلك الوقت ستلدُ زوجتي[2]. جنيف مدينة جيدة، وثمّة فيها أطباء ولغتها هي الفرنسية. ولكن مناخها سيّئ للغاية، ومُعتمٌ، وأنّ خريفها وشتائها سيئان جداً. ولربما، إذا أصبحت لدينا أموال، فسيكون من الممكن لنا الانتقال إلى إيطاليا بعد شهرين ونصف. عموماً، يجب أن نقضي الشتاء إما في إيطاليا أو في باريس. وأنّني عموماً لا أعرف أين أرخص وأكثر راحةً. ولربما سنبقى في جنيف حتى الربيع.

---

(1) الحديث هنا عن رواية «الأبله» التي جرت أول كتابة لها في 2 سبتمبر 1867، وفي 24 ديسمبر 1867. أرسِلت خمسة فصول من الجزء الأول إلى «البشير الروسي». وفي هذه الفترة تحديداً، كان دوستويفسكي يتفاوض مع كاتكوف خلال لقائهما في موسكو في 6 أبريل 1867.

(2) ولدت سونيا ابنة دوستويفسكي في 22 فبراير 1868.

الحسابات المالية هي كما يلي: إذا تمّ نشر الرواية، فلن يرفض كاتكوف أن يُقدّم لي قرضاً آخر بمبلغ ثلاثة آلاف خلال العام المُقبل أيضاً. وهذا يعني أنّه سيتوفر لدينا مال، ولبافل وإيميليا فيودوروفنا، بل وحتى القليل منه لدفع أجور الدائنين (من أجل تهدئتهم). ومن المُمكن بيع الرواية أو الاتفاق مسبقاً على بيعها في طبعةٍ ثانية بحلول منتصف العام[1].

أنت الوحيد عندي، عزيزي، وعنايتي الإلهية. فلا تتخلَّ عن مساعدتي في المستقبل. إذ أنّني أُناشدكَ أن تُشارك في أموري الصغيرة والكبيرة هذه.

ولربما أنّك على بيّنة من الفكرة الأساسية التي تستند عليها آمالي هذه كلها: فمن الواضح أنّ كل هذا يمكن القيام بهِ ويؤتي ثماره بشرط واحد فقط، وهو: أن تكون الرواية جيدة. لذلك، يجب عليّ الآن إيلاء الاهتمام بهذا الأمر بكل قوتي.

(آه، يا عزيزي، كم كان الأمر صعباً، صعباً للغاية في تحمّل تلك الفكرة المُتعجرفة التي أرهقتني منذ ثلاث سنوات من أنّني سأدفع كل هذه الديون، وأُسدد كل هذه الكمبيالات بحماقةٍ! فمن أين لي أن أحصل على الصحة والطاقة لهذا الأمر! وإنّ كانت التجربة قد أظهرت أنّ النجاح ممكن أن يتحقق، فبأي شرط عندئذ ممكن أن يتحقق؟ بشرط أن أي نتاجٍ من نتاجاتي يكون ناجحاً للغاية بشكل مؤكدٍ بحيث يُثير اهتماماً كبيراً في نفس الجمهور، وإلا ينهار كل شيء. فهل هذا ممكن حقاً؟ وهل يمكن إدراجه في الحسابات الرياضية؟).

والآن كلمتي الأخيرة لك. فاستمع إليها، أدرِكها وساعدنيّ!

---

(1) لم تصدر الطبعة الثانية من رواية «الأبله» إلا في عام 1874.

لدينا من المال الآن 18 فرنكاً. وغداً أو بعد غد، ستتسلم 50 روبلاً من والدة آنّا غريغورييفنا، والتي لم تبعثها إلينا من أموال كاتكوف. وهذا كل شيء، كل ما نملك من أموال لحين وصول مبلغ آخر من كاتكوف. (وليس بوسع والدة آنّا غريغورييفنا الآن، وفي هذه اللحظة تحديداً، وفي مثل هذه الظروف، أن تُساعدنا بكوبيكٍ واحدٍ).

ولكن الآن أصبح من المستحيل تماماً أن أطلب من كاتكوف شيئاً. ولكن بعد شهرين سيكون الأمر مختلفاً: فسأُرسل له رواية تُضاهي ألفاً وخمسمائة روبل وأصفُ له أموري. وسيقطع منها 1000 روبل لسداد ديوني، ويُرسل إلي 500 روبل. إنّني أُعوّل على هذا الأمر بالكامل: فهو إنسانٌ طيبٌ ورجل كريم.

ولكن كيف يمكن تجاوز هذين الشهرين من العمل؟ لا تلُمني، وكن ملاكي الحارس! إنّني أعلم، يا أبولون نيكولايفيتش، أنّك نفسك لا تملك مالاً كافياً. ولم أكن سألجأ إليك بطلب المساعدة. لكنني أغرق، بل قد غرقت تماماً. وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، سأصبح مُفلساً تماماً، ولن يبقى لدي كوبيك واحد، وإنّ الغارق يمدّ يده دون أن يحتكم لعقله. وهذا ما أفعله أنا أيضاً. أعلم أنّك ميّالٌ إلي جيداً؛ لكنني أعرف أيضاً أنّه يكاد يكون من المستحيل أن تُعينني بالمال. ومع ذلك، وبمعرفتي بذلك، أطلب منك المعونة، لأنّه ليس لدي أحد سواك، وإن لم تُساعدني، فسأهلك، سأهلك تماماً!

هذا طلبي:

أطلب منك 150 روبلاً. أرسِلها إلي إلى جنيف، على بريد poste

restante. وفي غضون شهرين ستُرسل لك هيئة تحرير مجلة «البشير الروسي» 500 روبلاً باسمي. سأطلب منها بنفسي أن تقوم بذلك. (وليس لدي أدنى شك في أنها ستُرسلها إليك، حالما أُرسل إليها الرواية. وسأُرسلها. وليس لدي شك في ذلك أيضاً).

لذا، يا عزيزي، أطلب منك المبلغ لشهرين. فأنقذني يا عزيزي! وسأكون خادماً لك بالصداقة والمودة إلى الأبد. وأنّ لم تكن لديك نقود، فاستلف من أي أحدٍ من أجلي. أرجو أن تعذرني على هذا الأسلوب في الكتابة، لكنني غارق![1]

بدءاًمن شهر سبتمبر سيبقى بافل بلا مال. (فضلاًعن إيميليافيودوروفنا!). لذلك، اِقسم له من الـ150 روبلاً، 25 روبلاً، وأعطِهِ إياها في غضون ذلك، وقل له أن يُضيّق على نفسه ويقتصد لمدة شهرين. وسأكتب لك بعدئذ كم يجب أن تقسّم لأجله حينها من مبلغ كاتكوف الـ500 روبل. (ولهذا السبب، أعتزم أن أطلب من هيئة تحرير «البشير الروسي» أن تُرسل المبلغ على عنوانك من الآن فصاعداً؛ لأنّني أطلب منك أن تكون مساعداً لي لفترةٍ من الوقت في بعض شؤوني في بطرسبورغ، أي أنّ المصروفات والمدفوعات ستتمّ عن طريقك، فلا تقلق من ذلك، فليس ثمّة في الأمر ما من شأنه أن يضعك في حرجٍ مُلتبسٍ. إنّني أطلب مشاركتك الودّية فحسب، وأُناشدك لأنّه ليس لدي أحدٌ في بطرسبورغ سواك يمكنني أن أعتمد أو أُعول عليه!).

وأرجو منك أن تكتب إلي في أقرب وقتٍ ممكن. لا تتركني لوحدي! وسيُثيبك الله مقابل ذلك.

---

(1) أرسل مايكوف النقود في ذلك الحين.

وأخبِر بافل أن يكتب إلي هنا، في جينيف، عن كل ما حدث معه، وإن كانت لديه رسائل مُرسلة إليّ، فليُرسلها على غرار المرة السابقة. لم أتلقَّ منه سوى رسالة واحدة طوال تلك المدة. يبدو لي أنّه لا يُحبّني إطلاقاً. وهذا يؤلمني للغاية.

عنواني:

Mr. Theodore Dostoiewsky, Suisse, Geneve, poste restante.

اكتب لي عنوانك أيضاً. ونظراً لأنّني لا أعرف عنوان منزلك، فسأُرسل هذه الرسالة عن طريق آنّا نيكولاييفنا سنيتكينا (والدة آنّا غريغورييفنا)، وسوف تُسلّمها إليك.

على أيّة حال، أطلب منك بإلحاحٍ، يا عزيزي، أن تكتب إلي في أقرب وقت ممكن وأن تُخبرني بالمزيد من الأخبار عن كل أحبائنا ومعارفنا، وعما يجري ويحدث، وعما تفعله أنت، باختصار، اِسقِ بقطرة ماء الروح التي جفت في الصحراء. ناشدتك بالله!

بلّغ تحيتي لأهلك، ولوالديك ولآنّا إيفانوفنا. وخصوصاً لها. ومن آنّا غريغورييفنا خصيصاً. فشد ما تحدثنا عنكم وكم تذكرناكم.

سنلتقي ذات يوم!

انصحني بشيءٍ أيضاً. وأخبرني عن وجهة نظرك بشأن أحوالي. ألم تسمع شيئاً عن شؤوني في بطرسبورغ من بافل؟

في رسالتي التالية سأكتب عن شيء آخر.

إنني مُنعزلٌ تماماً في جينيف ولم أرَ أياً من الروس.

وليس ثمّ صوت روسي، ولا وجه!

وداعاً، أُعانقك بحرارة، وأُقبّلك.

المخلص لكِ

فيوذور دوستويفسكي

3

في سبتمبر من عام 1867 نفسه، تم إرسال المكان الرئيسي لرسالة دوستويفسكي ـ محادثاته مع تورغينيف ـ في نسخة إلى محرر «البشير الروسي» بارتينيف، على الرغم من أنّه لم يُشَر إلى اسم المُرسل. وفي رسالة مُرفقة مجهولة الاسم، طُلِبَ من بارتينيف الاحتفاظ بهذه الوثيقة للأجيال القادمة في مكتبة تشيرتكوف.

وليس من المعروف لنا حتى الآن ما إذا كان أقرب صديق لتورغينيف ومُراسله الدائم في بطرسبورغ ب. ف. أنينكوف، قد علِم بطريقة ما بهذا الإرسال وأبلغ تورغينيف به على الفور. وفي رسالة إلى أنينكوف بتاريخ 22 (ديسمبر) 1867، كتب تورغينيف: «حسناً، لكنك فاجأتني بخبر رسالة دوستويفسكي (من أنّه هو، ليس ثمّ أدنى شك في ذلك). وبعدئذ، دع أبناء جلدتك يأتون إليك... أحسنت صنعاً! يمكنك إرسال رسالتي المُرفقة إلى بارتينيف وفق ما تراه مناسباً... وخذ نسخة من الرسالة إلى بارتينيف ولا تتردّد في إظهارها لأي أحدٍ».

لم يتردد أنينكوف المولع بالفضائح الأدبية في تنفيذ رغبة تورغينيف الأخيرة. هنا، على سبيل المثال، رسالته إلى ف. ب. بوتكين، التي لا تزال حتى اللحظة مجهولة في الصحافة، والتي يعود تاريخها إلى ذات الفترة (نسخة طبق الأصل، المحفوظة في مجموعة يو. أ. باخروشين؛

ونحن نُقدم خالص امتناننا إلى يو. أ. باخروشين لإعطائنا الإذن بنشر هذه الرسالة:

31 ديسمبر [1867 بطرسبورغ].

المُوقر فاسيلي بيتروفيتش، أرجو منك أن تتريث قليلاً في إرسال علبة الشاي التي تحدّثنا عنها إلى حين أن أقوم بتوزيع بعض محتوياتها بين المعارف الذين يتذكرون روعتها، لأنّني لا يمكنني أن أحتفظ بها لنفسي بالكامل. وإنّ هذا الأمر لن يستمر طويلاً الآن. سأراك في القريب العاجل بنفسي.

وفي غضون ذلك، ومن أجل تسليتك، أرفق نسخة من رسالة تورغينيف إلى بارتينيف في موسكو، بشأن افتراءات دوستويفسكي. وإنّه، بالطبع، أمرٌ تافه، وكريه.

المخلص لكِ

ب. أنينكوف

***

أرسلَ أنينكوف رسالة تورغينيف إلى بارتينيف فور استلامها إلى المُرسل إليه. وها هو نص الرسالة:

سيدي الكريم بيتر إيفانوفيتش!

بَلَغني أنّ الرسالة التي تحمل توقيع السيد ف. م. دوستويفسكي قد أُرسِلت إليك إلى مكتبة تشيرتكوف وأنّه في هذه الرسالة، التي لا ينبغي أن ترى النور قبل عام 1890، وردت من قِبله آراء شائنة وسخيفة

حول روسيا الروس، والتي نسبها إليّ. إنّ هذه الآراء، التي يفترض أنها تُشكل مُعتقداتي الصادقة، قد عبّرتُ عنها، بحسب قناعة السيد ف. دوستويفسكي، أثناء تواجده في بادن، في الصيف الحالي، خلال زيارته الوحيدة التي شرّفني بها. ناهيك عن مدى تبرير خيانة الثقة هذه، فإنّني مضطر لأن أعلن من جانبي أنّني سأعتبر أنّ التعبير عن مُعتقداتي الصادقة أمام السيد دوستويفسكي غير لائق، وأنّني أعتبره، بسبب نوبات الصرع المؤلمة وأسباب أخرى، إنساناً لا يمتلك كامل قدراته العقلية. ومع ذلك، فإنّ رأيي هذا يُشاطره العديد من الأشخاص الآخرين. لقد التقيت بالسيد دوستويفسكي، كما قيل سابقاً، مرة واحدةً فحسب. وكان قد جلس معي لمدة لا تزيد عن ساعة، وبعد أن خفّف عن قلبه بإساءته القاسية تجاه الألمان، وتجاهي وتجاه كتابي الأخير، انسحب. ولم يكن لدي وقت تقريباً ولا رغبة في مُعارضته: أُكرر، بأنّني عاملته على أنّه شخصٌ مريض. ومن المُرجّح أنّ الحجج التي توقّع أن يسمعها مني، قد قدّمت نفسها لخياله المُضطرب، وقد كتب عني... تقريره للأجيال القادمة.

ولا ريب أنّه في عام 1890 أنّ كلانا، أنا والسيد دوستويفسكي، لن نجذب انتباه أبناء جلدتنا، وإن لم نُنسَ تماماً، فلن يحكموا علينا بافتراءات من جانبٍ واحدٍ، وإنّما من خلال نتائج حياتنا ونشاطاتنا الكاملة؛ ولكنني مع ذلك اعتبرت أنّه من واجبي الاحتجاج الآن على مثل هذا التحريف لطريقة تفكيري.

ولا يسعني إلا أنّ أطلب منك أن تعذرني لأنّني قررت اللجوء إليك دون أن يكون لي شرف التعارف معك شخصياً، وأن تقبل كذلك مني

تعبيري عن فائق احترامي وإخلاصي، واللذين أبقى بهما خادمك المُطيع.

إيفان تورغينيف
بادن ـ بادن، شارع شيلر، 7.
3 يناير 1868، (22 ديسمبر، 1867).

ورداً على هذه الرسالة، كتب بارتينيف إلى تورغينيف الرسالة التالية (تم نشر الرسالة من قبلنا لأول مرة؛ أوتوغراف. في قسم أرشيف تورغينيف الموجود في دار بوشكين لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي):

سيدي الكريم إيفان سيرغييفيتش!

يُشرفني أن أُجيب على رسالتك المُبجلة في 9 يناير من هذا العام، التي أوصلها إلي إي. إي. ماسلوف بأنّ مكتبة تشيرتكوف قد تمّ تسليمها بالفعل وصفاً للحوار الذي يُزعم أنّه دار بينك وبين السيد دوستويفسكي في بادن، في صيف عام 1867، في 4 صفحات من رسالة قصيرة. لكن هذا الوصف مليء بمثل هذه التعبيرات المُتجاوزة الحدود والأدلة الواضحة على الغرور الانفعالي غير الطبيعي لدرجة أنّه لا يمكن أن يُثير في نفس القارئ إلا ابتسامة تعزية. وبالاحتفاظ بهذا الجزء بناءً على طلب الشخص المُوصِل، أعتقد أنّ مثل هذا النداء إلى الأجيال القادمة لن يبرر آمال المؤلف. على أيّة حال، يجب أن أقول إنّ الجزء لم يتم استلامه من السيد دوستويفسكي على الإطلاق (الذي لم يحدث أن رأيته من قبل) وليس ثمّة أي توقيع عليه.

أود أن أغتنم هذه الفرصة لأعرب لكم عن فائق احتراماتي القلبية واسمح لي أن أضيف إلى ذلك، تعاطفي الأدبي.

بيتر بارتينيف
1868
26 يناير
موسكو.
مكتبة تشيرتكوف.

كان تورغينيف راضياً عن هذا الجواب. وهذا واضح من رسالته إلى ب. ف. أنينكوف بتاريخ 4فبراير 1868، حيث نقرأ فيها: «استلمت رسالةً مُهذبة للغاية من ب. إي. بارتينيف، والتي يردّ فيها، كما ينبغي، على افتراءات السيد دوستويفسكي المُتهورة، والذي، مع ذلك، لم يُكن موقعاً من قبله، ولكن من الواضح أنّه كان ناجماً عن ريشته».

إلى هنا نتنهي من قصة إرسال نسخة من رسالة دوستويفسكي إلى مكتبة تشيرتكوف.

4

لم يتحدث تورغينيف عن مُشاجرته مع دوستويفسكي في بادن مباشرةً بعد لقائهما. ومن المُسلّم به أن تورغينيف قد كتب عن هذا اللقاء لصديقه في بطرسبورغ، ب. ف. أنينكوف. ولكن، للأسف، ففي رسائل تورغينيف المُرسلة إليه (أنينكوف) خلال عام 1867، والتي نشرها الأكاديمي ل. ن. مايكوف، لا توجد رسائل لشهر أغسطس من ذلك العام. وليست ثمّة رسائل لتلك الفترة في حُزمة رسائل تورغينيف غير المنشورة، والمحفوظة في الأرشيف المركزي.

ثمّة ردّان من ردود فعل تورغينيف اللاحقة على هذا اللقاء: أحدهما في رسالته إلى بولونسكي، والآخر شفوياً، كُتِب من قِبل يفغيني غارشين.

في عام 1871، بعد أن علِم أن دوستويفسكي قد صوره باسم كارمازينوف في «الشياطين»، كتب تورغينيف إلى بولونسكي (24 أبريل): «قيل لي أنّ دوستويفسكي قد «صورني»... حسناً! دعه يتسلّى. لقد جاء إليَّ منذ حوالي 5 سنوات في بادن لا لكي يُسدد لي المال الذي أقرضته إياه، وإنّما لكي يشتمني على ما يجب أن يشتمني عليه؛ من أجل رواية «الدخان»، التي، بحسب مفهومه، كانت مُعرّضةً للحرق على يد الجَلّاد. لقد أنصتُّ بصمت إلى هذه الخطبة المُفعمة بالتقريع والكلام القارص بأكملها، وما الذي اكتشفته؟ اكتشفت كما لو أنّني كنت قد عبرت له عن كل أنواع الآراء

الإجرامية التي سارع في أن يُحدّث بارتينيف عنها (كان بارتينيف قد كتب إليّ بالفعل عن هذا). لو لم يكن دوستويفسكي مجنوناً لكان ذلك مجرد افتراء، وهو ما لا أشكّ فيه مُطلقاً. ولعله كان يتراءى إليه ذلك كله».

لن نسهب في الحديث عن عدم دقة رسالة تورغينيف هذه، فهي واضحة من المواد المنشورة أعلاه.

لقد تم الاحتفاظ بالدليل الثاني عن الشجار، الذي قدمه تورغينيف، في مُذكرات يفغيني غارشين. وتُشير مذكرة الحوار الواردة في أدناه إلى السنة التي توفي فيها دوستويفسكي، 1881. «إنّ هذا الحوار برمته ـ يكتب غارشين ـ بدأه قريب إيفان سيرغييفيتش الشاب، وهو فتى صادق، وصريح، لم يكن يتردد في التعبير بصراحةٍ عن ولعه بدوستويفسكي، الذي استحوذ على جميع الشباب تقريباً في ذلك الحين، وأوصلهم إلى حد نكران الذات. ولم يشفق إيفان سيرغييفيتش على هذا الولع الفتيّ، وبطبيعة الحال، حطّمه بلا مشقةٍ، بعد أن رسم صورة غير بغيضة للكاتب المرحوم. فقال إيفان سيرغييفيتش: «لم يكن رجلاً طيباً ولم يكن بوسعه أن يكون غير مُبالٍ بنجاح الآخرين». لم يكن كافياً بالنسبة له أنّه صورني باسم كارمازينوف، ولكن لماذا كان بحاجة إلى إزعاج غرانوفسكي: ألِأنّه ميتٌ؟».

نقلاً عن غارشين، فقد كانت ثمّة الكثير من الأمور المُعقدة، والتي، مع ذلك، من السهل جداً تحديدها عند مقارنتها بالمواد المنشورة اعلاه. وها هي قصة غارشين الرئيسية:

«بالإشارة إلى عدم قدرة دوستويفسكي على الانعزال عن الأشخاص،

روى تورغينيف أيضاً صدامه الشخصي مع دوستويفسكي، والذي انفصلا بعده نهائياً.

كان ذلك في بادن ـ بادن، في عام 1868، عندما كانت رواية «الدخان» قد صدرت لتوّها. في ذلك الوقت، كان دوستويفسكي مولعاً للغاية بالقمار، وبالربح الكثير، وكان مُتأكداً من أنّه وصل إلى أرقام الحظ، و... خَسِرَ كل شيء حتى آخر كوبيك. ونظراً لكونه في موقفٍ حرجٍ، فقد تسلف دوستويفسكي مبلغاً قليلاً من المال من تورغينيف. وسرعان ما استرجع ما خسره، توقف عن لعب القمار وجلب دينه إلى تورغينيف. ولكن بعد أن أعطاه نقوده، شعر دوستويفسكي، بحسب كلام تورغينيف، بثقل واجباته تجاه الرجل الذي لا يُحبّه، وهنا، وكأن ذلك على سبيل النكاية، اتضح أنّ «الدخان» المنحوسة كانت طعماً لهذا الانفعال.

- يجب حرق هذا الكتاب بيد الجلاد.

قال دوستويفسكي وهو يحمل الكتاب بين يديه.

استفسر إيفان تورغينيف (لسوء الحظ، حدث هذا المشهد بأكمله وجهاً لوجه) بشكلٍ متواضعٍ عن الأسباب، ورداً على ذلك سمِع خطاباً اتهامياً كاملاً حول موضوع: أنت تكره روسيا، ولا تؤمن بمستقبلها، وما إلى ذلك. وباختصار، فقد طابق دوستويفسكي بوتوغين بتورغينيف نفسه. وروى إيفان سيرغييفيتش أنه فضّل الاصغاء لكل شيء بصمتٍ وانتظر حتى ينتهي دوستويفسكي ويرحل. وقد حدث ذلك بالفعل. ولكن، بعد مرور بعض من الوقت، تلقى إيفان سيرغييفيتش إخطاراً من ناشر «الأرشيف الروسي» السيد بارتينيف بأنّ دوستويفسكي قد خاطبه برسالة تم فيها

نسخ المونولوج المذكور أعلاه، ولكن ليس كتهمة ضد تورغينيف، وإنّما كاعتراف شخصي، في صيغة: «أنا أكره روسيا».. إلخ. وفي الوقت نفسه، طلب دوستويفسكي نشر هذه الرسالة في موعدٍ لا يتجاوز التاريخ المعلوم (حسبما أتذكر 10 ـ 15 عاماً). وعندما سألَهُ بارتينيف عمّا يجب فعله في هذه الحالة، أجاب إيفان سيرغييفيتش أنّه ليس مبالياً بذلك تماماً.

إنني أقول هذه الحقيقة كما سمعتُها من إيفان سيرغييفيتش، لا سيما بالنظر إلى حقيقة أنّه في الوقت الحالي، من بين المواد الخاصة بسيرة حياة دوستويفسكي، يبدو أنّ هناك رسالة إلى أ. ن. مايكوف تتعلق بهذه الحادثة بالذات، والتي تحدثتُ عنها للتوّ. وبالنسبة لكاتب السيرة الذاتية، فبالطبع، ليس ثمّة شيء أسوأ من حالةٍ يتحاور فيها شخصان وجهاً لوجه، وينقلان هذه الحوار بطرق مختلفة تماماً. وسيميل كاتب السيرة بشكل لا إرادي إلى حيث يكمن تعاطفه. وإذا افترضنا أنّ التعاطف يكمن في كلا الاتجاهين، أو أنّ هناك قوة للتعامل مع الطرفين بموضوعية، فحقيقة أنّ تورغينيف، على أيّة حال، المتهم بكراهية وطنه، قد قاوم هذا الاتهام، تستحق الاهتمام. وبشكل عام، يجب القول أنّ إيفان سيرغييفيتش ردَّ بشكل لا فائدة منه كثيراً عن الصفات الأخلاقية لدوستويفسكي».

وسرعان ما أسفرت هذه القصة عن «السجل الأرشيفي» التالي لبارتينيف:

«في الكتاب الحادي عشر من «النشرة التاريخية» نُشِرَتْ مذكرات السيد غارشين عن تورغينيف، والتي تحتوي على قصة تورغينيف حول خلافه مع دوستويفسكي وكيف خاطبه الأخير بخطاب اتهامي».

«تلقى إيفان سيرغييفيتش (رواه السيد غارشين) إخطاراً من ناشر «الأرشيف الروسي» السيد بارتينيف بأنّ دوستويفسكي قد خاطبه برسالة تم فيها نسخ المونولوج المذكور أعلاه. وفي الوقت نفسه، طلب دوستويفسكي نشر هذه الرسالة في موعدٍ لا يتجاوز التاريخ المعلوم (حسبما أتذكر 10 ـ 15 عاماً). وعندما سألَهُ بارتينيف عما يجب فعله في هذه الحالة، أجاب إيفان سيرغييفيتش أنّه ليس مبالياً بذلك تماماً».

لقد خانت الذاكرة في هذه الحالة إما السيد غارشين أو تورغينيف. وإنّني لم أتلقَ أيّةَ رسالة من دوستويفسكي، ولكن هذا ما حدث. في سبتمبر من عام 1867، لقد تمّ إرسال عدة صفحات من دوستويفسكي إلي على شكل قائمة (مؤرخة في 16 أغسطس 1867، جنيف)، حيث وُصِف فيها لقاؤه مع تورغينيف في بادن ـ بادن مع تفاصيل حواراتهما وخلافاتهما. وفي رسالة من شخصٍ غريب، مُصطحباً هذه الرسالة، ذُكِر أنّ هذه الصفحات أُرسِلَت إليّ من أجل أن أحتفظ بها. ولم أكن في ذلك الحين على معرفة شخصيةٍ، أو كتابيةٍ سواء مع دوستويفسكي أو تورغينيف، وفي تلك الأثناء، لم أكتب أيّة رسالة إلى تورغينيف، لكنني تفاجأت كثيراً عندما تلقيت في ذات العام رسالة من تورغينيف من بادن ـ بادن، بتاريخ 22 ديسمبر، حسب التقويم الميلادي الشرقي (اليولياني)، رسالةً يدحض فيها الاتهامات الموجه إليه من قِبل دوستويفسكي، وكانت أيضاً من أجل أن أحتفظ بها.

ومنذ ذلك الحين، كنت أتراسل مع تورغينيف مراراً وتكراراً عن طريق «الأرشيف الروسي»، حيث أرسل إلي عدة مرات أوراقاً تاريخية، حيث نُشرت في عام 1867 مقالته «أمسية عند بليتنيوف». وعند مجيئه إلى موسكو، زارني تورغينيف. لكنه لم يدخل معي في حوارٍ لا قبل، ولا

بعد ذلك عن رسالة دوستويفسكي، والتي كانت تبدأ بالكلمات التالية: «بلغني أن» وتنتهي بـ: «لا يسعني إلا أنّ أطلب منك أن تعذرني لأنني قررت اللجوء إليك دون أن يكون لي شرف التعارف معك شخصياً» وما شابه ذلك.

إذن.. 8 نوفمبر 1883 ب. بارتينيف

في وقتٍ لاحق، عاد بارتينيف من جديد إلى هذا الموضوع. وفي عام 1902، بعد خمسة وثلاثين عاماً من إرسال قائمة برسائل دوستويفسكي من «شخصٍ مجهول» إلى مكتبة تشيرتكوف، كرّس بارتينيف مقالةً قصيرةً عن عِداء هذين الكاتبين.

5

نختتم مقالتنا بمرجعٍ ببليوغرافي عن تاريخ نشر هذه الرسالة الرائعة من دوستويفسكي إلى مايكوف، والتي تُعتبر أكثر إثارة للاهتمام منذ أن استمر نشر الرسائل لمدة 45 عاماً، حاملةً في طياتها العديد من التحريفات والحذف.

لقد تمّ إعداد هذه الرسالة لأول مرة للنشر فور وفاة دوستويفسكي، حينما جمعَت آنّا غريغوريفنا رسائل زوجها لأجل المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة، ولاحقاً من أجل مُنتخبات مُختارة «السيرة الذاتية، الرسائل، وخواطر من دفتر مذكرات دوستويفسكي». ولكن منذ وقت إعداد المُنتخبات المُختارة للنشر، كان تورغينيف لا يزال على قيد الحياة، وأجرت آنّا غريغوريفنا عملية غريبة باستخدام هذا المُستند: فقد أوجزت الرسالة بأكملها بشكلٍ كبير، وأصدرت كل ما يتعلق بتورغينيف تماماً، ونقلت أحد المُقتطفات الذي كان يعود لأحد الطلاب إلى مكان آخر ونتيجة لذلك حدثَ عدم ترابط تام. وقد حذفت كُنية كل من غونتشاروف وتورغينيف تماماً. بالمناسبة، يوجد في «غرفة ف. م. دوستويفسكي» في المتحف الحكومي التاريخي 124 تصحيح طباعة لرسائل دوستويفسكي إلى أشخاص مختلفين مُدرجين في المُنتخبات المُختارة «السيرة الذاتية، الرسائل، وخواطر من دفتر

مذكرات دوستويفسكي». وقد ظلّت هذه التصحيحات، بناءً على إصرار آنّا غريغوريفنا، «غير مُتاحة للاستخدام العام»، وبسبب الاستثناءات المُتاحة هناك تحديداً، والتي لم تظهر في الصحافة في ذلك الحين، فأنّ إرهاب المُنقح كان واضحاً لآنّا غريغوريفنا.

لقد تعالت أصواتٌ ضدّ هذه الأساليب التحريرية الغريبة فور خروج المُنتخبات المُختارة إلى النور. خصوصاً وأنّهم قد تمردوا بحماسة ضد تحريف الرسالة القيّمة إلى أ. ن. مايكوف. وهذا ما كتبه أورست ميلر في عام 1884: «لقد نُشِرت هذه الرسالة [إلى مايكوف] مع مثل هذه الحذف بحيث يصعب تخمين مضمونها الرئيسي. وبعد ما قيل عن الحادثة الحزينة من كلمات تورغينيف، تبين أنّ المُعاملة اللطيفة، التي كان ناشرو رسائل دوستويفسكي يتعاملون بها؛ غير ضرورية. واستناداً إلى المبدأ القديم: «audiatur et altera pars»[1]، يجب نشر رسالة دوستويفسكي بشكلها الكامل، بوصفها إضافة إلى المجلد الأول، الذي كان مُعدّاً للنشر في الوقت الذي ظهرت فيه مقالة السيد غارشين. لقد قرأتُ هذه الرسالة وأعلم أنّه بغضّ النظر عن مدى كونها «غير مُفيدة ـ بحسب رأي السيد غارشين ـ فإنّ تورغينيف لم يتحدث عن الصفات الأخلاقية لدوستويفسكي»، ولم تُفرّقه عن تورغينيف أيّة دوافع أو حسابات شخصية، وإنّما على وجه الاستثناء، بسبب حقيقة أنّ دوستويفسكي لم يتمكن من الصلح مع بوتوغين، حيث أقرّ تورغينيف، وفقاً لفيودور ميخائيلوفيتش، باعترافه بالخطايا (وهذا، بالطبع، كان من الممكن أن يحدث فقط في سورة الانفعال: في الواقع، لأنّ ما قاله بوتوغين تبيّن لدى تورغينيف أنّه «الدخان»...). ولكن، بالطبع،

---

(1) عبارة لاتينية تعني: «الاستماع للطرف الآخر». (المترجم).

لم تتمّ إعادة نشر الرسالة في ذلك الحين وبقيت في مثل هذا الشكل المُحرّف حتى يومنا هذا.

في عام 1902، نُشر مقتطف من هذه الرسالة، مكرّسٌ لتورغينيف، في «الأرشيف الروسي» من قبل ب. آي. بارتينيف، بناءً على نسخة مرسلة في عام 1867 إلى مكتبة تشيرتكوف.

ومن هنا تمّ إخراج هذا الجزء من الرسالة عن طريق ف. ي. تشيشيخين-فيترينسكي في عام 1912 في إصداره «دوستويفسكي في مُذكّرات ورسائل وخواطر معاصريه». لكن فيترينسكي لم يختزل هذه الرسالة بالكامل فحسب، بل أوجزَ عدداً من المقاطع الأخرى الموجودة في «السيرة الذاتية». في الإصدار الثاني من مُنتخباته المُختارة، نشر فيترينسكي هذه الرسالة بنفس شكلها.

ومن ثم، في عام 1924، اختزلت ي. ب. بوكروفسكايا، استناداً إلى الأوتوغراف الأصلي للرسالة التي دخلت ضمن أرشيف مياكوفسكي في دار بوشكين، في المجموعة الثانية من المقالات والمواد حول دوستويفسكي في عدة سطور، والتي تم حذفها في جميع المنشورات السابقة.

وفي مقالتنا هذه، تم نسخ هذه الوثيقة بالكامل بالأوتوغراف لأول مرة.